الحضارات الافريقية

تأليف : دنيس پولم
ترجمة : علي شاهين

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

الحضارات الافريقية

الحضارات الأفريقية

تأليف : دنيس بولم
ترجمة : علي شاهين

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت
١٩٧٤

مدخل الكتاب

من الأحكام القوية التي راجت ، هو أن الافريقيين لم يكن لديهم أي نصيب في التراث الحضاري بشكل عام . ولهذا ستكون افريقيا اذن دون تاريخ .

وبينما نجد انه ولا انسان يستطيع أن ينكر وجود حضارات قديمة في آسيا ترجع الى آلاف السنين ، فان المغامرين الاسبان les Conquistadores ، بعد ان قضوا على هنود أمريكا ، كانوا مذهولين أمام روعة المعابد والقصور التي خلفها « اولئك المتوحشون » . وكذلك فان ماضي القارة السوداء لم يلق أي اهتمام إلا منذ سنوات خلت وحتى دراسة الآثار الافريقية لم تكن لها وجود ايضاً .

والواقع فان الهمجية التي تلصق بالافريقيين كانت تولد الاحتقار . كما ان الاوربيين استطاعوا الوصول في أواخر القرن التاسع عشر الى مناطق يسكنها جماعات تعيش منذ أجيال في حالة حرب وذعر دائمين .

وانه بانطلاقنا من هذا المشهد الكئيب للمجتمعات الافريقية ، فان علماء الجغرافيا قد ركزوا انتباههم على عزلة هذه القارة وعلى الطابع القاسي الذي يطبع سواحلها ، وعلى مظهرها كقارة تعيش في شبه انعزالية .

١ — سوف لا يرى القارىء بحثاً مفصلاً عن أفريقيا الشمالية في هذا الكتاب

المخصص للبحث في الحضارات الافريقية الصرفة . أي سود أفريقيا ذلك من الناحية التاريخية والسكان والانواع وطرق الحياة ، وان ذكر المغرب هنا لا يمثل لنا الا ذكرى عن علاقاتنا مع بقية القارة الافريقية . كما أنه توجد كتب من سلسلة (ماذا اعرف ؟) قد عالجت بالتفصيل تاريخ الجزائر ومراكش وتونس بحيث يمكن للقارىء أن يرجع اليها .

فهي مفصولة عن امريكا بالمحيط الاطلنطي وعن آسيا بالمحيط الهندي ورغم امتدادها في البحار الجنوبية فانها لا تتصل بأوراسيا Eurasie الا باطار صحراوي ضيق . وأما البحر الاحمر فهو لا يحاذي الا شطآناً مقفرة .

ويبقى أخيراً ساحل البحر الابيض المتوسط فهو وحده الذي ينفتح على علاقات تجارية ، ولكن ليس كل الساحل فهناك مثلاً شواطىء (السيرت Syrtes)[1] التي لا تمثل شيئاً مما ذكرناه . وهكذا نجد بأن اطاراً ضيقاً فقط من افريقيا هو الذي كان على اتصال بحضارات البحر الابيض المتوسط .

أما شواطىء القارة الاخرى فقد تميزت دائماً بوعورتها وصعوبة اجتيازها. فهي تارة قاسية وعرة وتارة مسطحة ومليئة بالبحيرات المستنقعية او مليئة بالحواجز الرملية والصخرية . كل هذا يجعل من شواطىء القارة غير صالحة لوجود ميناء طبيعي فيها .

كما اننا نجد حاجزاً منيعاً يجعل من الصعب جداً الوصول الى هذه الشواطىء المليئة بالمفاجآت والمصاعب . ونضيف الى كل هذا قِصَر هذه الشواطىء وعدم تجزئتها بشكل طبيعي وفقرها بالرؤوس والخلجان . كما ان بعض المناطق الافريقية تقع على بعد /١٨٠٠/كلم من أقرب نقطة للبحر .

---

١ — هما خليجان على البحر الابيض المتوسط . السيرت الكبير في الشرق ، والسيرت الصغير في الغرب ويعرف اليوم بخليج قابس Gabés .

وليست الشواطيء فقط هي التي تمنع اجتياز القارة بل هناك التضاريس ايضاً . وكثيراً ما قورنت هذه القارة بالمذود او الجرن الكبير ، فهي منخفضة في وسطها مرتفعة في سواحلها تماماً على عكس القارتين الآسيوية والاوروبية . أي ان المناطق المنخفضة تشكل وسط أفريقيا بينما تشكل المناطق المرتفعة محيطها .

فجبال الألب التي تنتصب في وسط اوروبا وكذلك هضبة التيبت التي تحتل وسط آسيا تعطي الأنهار الرائعة التي تجري نحو الشواطيء العديدة ثم تسقي السهول الواسعة في طريقها الى البحر ؛ أما في افريقيا فتبدو الجبال الساحلية وكأنها تدفع مياه الأنهار من البحر ، وان مثل هذه الجبال تفرض بطبيعتها المنعطفات الطويلة في داخل القارة على الانهار كنهر النيجر او الكونغو ، بحيث يصعب وجود مجار قابلة للملاحة . ونرى الشبكة النهرية تصل في بعض الأحيان الى انخفاض داخلي وسط القارة وهذه هي حال (الشاري — لوغنو Chari - Logno)[1] الذي يصب في بحيرة تشاد . وكذلك نرى الهضبة الافريقية على طول الشاطيء الغربي تتقهقر عندما تقترب من المحيط ثم تبرز من جديد قرب الشاطيء على شكل مرتفعات جبلية كثيراً ما تصور المكتشفون الذين وصلوا الى منطقة (سيرا Sierras) بأن هذه المرتفعات تشكل امتداداً لما يجب ان يكون . أما انهار افريقيا فهي بحكم تضاريسها المعقدة لا تكوّن كغيرها ممرات قابلة للاجتياز : فهي انهار قوية ولكنها غير كاملة وتسير في أماكن وعرة وتؤدي الى مناطق لا يمكن اجتيازها : فهناك شلالات النيل وسرعة مجرى نهر الكونغو ومساقط نهر الزامبيز ، وغيرها من الأماكن التي تعيق طريق المسافرين .

الى هذه العوائق الطبيعية التي تفرضها التضاريس ، نضيف صعوبة المناخ

(١) الشاري ، هو نهر في افريقيا الاستوائية الفرنسية وكذلك اللوغنو فهو احد روافده .

وخاصة بالنسبة للرجل الاوروبي . فهو مناخ رتيب وغير محتمل . فهنـا تبرز قساوة الصحراء ، وهنـاك تظهر الرطوبة الاستوائية فتشمل مناطق واسعة تذهل الانسان وتجعله خائر القوى .

وان مناخاً كهذا فاق حد التصور جعل الرأي يسود فترة من الزمن والقائل بأن وسط القارة الافريقية خال من السكان . ولقد كتب هيرودوتس يقول : « من العسير أن يتكهن الانسان فيما وراء حدود بلاد (الترانسفوج) Transfuges لان المنطقة صحراوية جافة بسبب حرارتها الهائلة » .

وهكذا يمر زمن طويل وظلت القارة السوداء مغلق مجهول لا يعرف أحـد شيئاً عنه الا ما تقوله حكايات سكان افريقيا الاصليـين الذين كانوا يسكنون المقـاطعات البعيدة فيتحدثون عن وجود العمالقـة والأقزام وعن وجود الرجـال — القرود والغيلان المفترسة وعن النساء التي تشبه الطيور . ولفترة طويلة كنا نستطيع ان نقرأ على خارطة افريقيا اسماء شعوب تسكنها ، فمنها من ليس لهم أنوف او ألسنة ومنهم من أصابعهم مقلوبة ومنهم الأقزام الذين يخافون على أطعمتهم من الرهاء .

نعم فافريقيا هي أم العجائب .

ولقد حُكم على هـذه القارة ان تعيش منطوية على نفسها لأسباب كثيرة . فهي منعزلة وذات اتصالات محدودة للغاية مع بقية القـارات ، وكذلك وجود الحاجز الطبيعي الذي يحيط بها وأنهارها ذات المجاري الصعبة كل هذا الى جانب مناخها القاسي وحيواناتها المفترسة وحشراتها التي هي أخطر من الوحوش .

وفي القرن الخامس عشر عُرفت الشواطىء الافريقية ، اذ اكتشفهـا البرتغاليون صدفـة أثناء بحثهم عن طريق الهند وكذلك فقد وصل البرتغاليون الى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٨ .

ولكن الحواجز الطبيعية القاسية جعلت أربعة قرون من الزمن تمر الى ان استطاع الانسان التوغل في قلب القارة السوداء . ولا ننس الأعمال الجليلة التي قام بها كل من : مانغو — بارك Mungo – Park ورونيه كاييه René Caillé ومن اقتفى آثارهما . وان هذه الأعمال لأكبر دليل على الجهود العظيمة التي بذلت في سبيل هذه الغاية .

ويبدو من الصعوبات التي رافقت عمليات الاكتشاف ان المسافرين الاوربيين قد وصلوا كلهم الى هذه القارة عن طريق ساحلها الغربي الوعر او أنهم جاؤوا من جهة الصحراء وهذه عملية تكاد تكون مستحيلة بالنسبة لمسافر عادي أعزل .

وأخيراً فاننا نضيف الى كل الصعوبات التي ذكرناها الأعمال العدوانية التي كان يقوم بها المسلمون في شمال أفريقيا الذين يصرون على منع « الكافرين » من دخول أراضي السودان .

وفي أوائل القرن التاسع عشر اكتشفت مجاري الأنهار الكبيرة مع منابعها فقط ، ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف داخل القارة التي أصابها الاحتلال ثم التقسيم .

سماء قاتمة ثقيلة تظلل سهولاً كثيرة العشب وأرض حمراء مجدبة الا من بعض الأعشاب وشجيرات الشوك تظللها أشجار (البوباب Baobab) الضخمة ، وهنا وهناك تقوم قرية فقيرة سقوفها من القش وبعض سكانها العراة او الذين يلبسون ثياباً مهلهلة ، ونساء ذات نحور مترهلة يطحن الحبوب في أجران حجرية ، وبعض الدجاج والماعز التي تتضور جوعاً والى جانبها عدد من الكلاب الشرسة . هذه هي الصورة الحقيقية لأفريقيا من بلاد السنغال حتى الأبيسيني[1] .

أما في الجنوب فهناك الغابة الرهيبة ذات الأشجار الضخمة والتي تلتف حولها

---

١ — مقاطعة في شرق افريقيا على حدوده أثيوبيا .

النباتات فتشكل سقفاً منيعاً فـــوق المستنقعات التي تنتشر تحتها ، بحيث لا يستطيع النور اختراق الأوراق الكثيفة . كل هذا يخلق جواً خـانقاً لا يطاق .

ومثل هذا المنظر الذي وصفناه يمتد مسافة يحتاج المرء الى قطعها أياماً طويلة في هذا الجو الخانق حتى يصل أخيراً الى شاطىء أحد الأنهـــار الكبيرة حيث يبقى شاطئه الآخر غير مرئي وعلى شاطىء هــذا النهر يشاهد الانسان أفراس البحر التي تطفو على سطح الماء كما يرى بعض الفيلة التي تؤم النهر للشرب منـــه او يرى التماسيح النائمة على مساحات صغيرة من الرمل .

لقد كانت أفريقيا ، أرض الصحراء والغابات والحميات ، مسكونة بشعوب يصفونها بأنهـا غارقة في وحشية غريبة او هي وحوش بشرية ان صح التعبير . ولكن الاتصالات التي قام بها الملاحون الأوروبيون في القرون الوسطى تكشف لنا كما هو الواقع عن وجود ممالك منظمة في القارة الأفريقية ، بيد ان الملاحين الذين ارتادوا القارة بعد أربعة قرون لم يعثروا على تلك الممالك بل وجدوا أطلالاً يخيم عليهـــا جو من الرعب . وهذا يؤكد بأن القارة السوداء كانت عرضة لحروب داخلية ومنعزلة عن العـــالم الخارجي فلا تنشر ظلها الا على نفسها (*L'Afrique était à cette époque l'ombre d'elle-même*) .

فكيف نفسر يا ترى مثل هذا الانهيار .؟؟.

الحقيقة أن حظ القارة الافريقية كان سيئاً للغاية ، فقد عرفت نور اكتشافها جماعة من التجار أغوتهم هذه القارة فكان همهم الوحيد استثمار ثرواتها الطبيعية . فالعرب والاوربيون كلاهما على السواء، لم يأبهوا لحـالة السكان المزرية بل اهتموا بالمكاسب التي يمكن الحصول عليها . أما نوع المكاسب فقد برز بسرعة وهـذا أمر يؤسف له . فآسيا وأمريكا كانتا بحاجـة الى الرقيق وها هي افريقيا — بلد الهمجية وشاطىء العبيد ومعها زنجبار[1] — تقدم هذه السلعة .

١ — ومعناها بلد العبيد .

ولذلك نرى التجار العرب ومن بعدهم النخاسين الاوروبيين قد استطاعوا تدريجياً ان يهدموا تلك الممالك التي حدثنا عنها المكتشفون القدماء . والطريقة التي لجأوا اليها هي التلاعب على سكان القرى وشراؤهم الرقيق بالآلاف ودفع السكان الأصليين الى غزوات كان هدفها فقط احتلال عدد كبير من الأسرى .

وهكذا فان الذين جاؤوا الى افريقيا فيما بعد لم يجدوا في طريقهم سوى أناس مذعورين ومتهورين ، ولا يرون خلاصهم الا في الهرب فقط .

لقد كان الرجل الأسود البربري يعبد الأصنام fétiches, ذات الأشكال المختلفة إلا ان هذه الفكرة الخاطئة قد استطاعت أن تبقى حتى اوائل القرن الحالي حيث اختفت كل الآثار الفنية القديمة ولم يبق الا تقاليد شعوب ترويها الأساطير التي يجهلها الأوربيون . ومنذ عدة سنوات قامت حركة تحمل طابع الكشف وحب الاستطلاع وغايتها اعطاء الأهمية الى تلك الأساطير التي تحكي تاريخ ممالك عظيمة .

كما نذكر هنا بعض الملاحم الكاملة التي استقيت من أفواه (الكريو griots)[1] والشعراء القدامى الذين لا يزالون يحتفظون بالتقاليد التاريخية القديمة .

وان زمن ما قبل التاريخ la Pré histoire يكشف لنا في افريقيا عن وجود جماجم معدنية تشهد على وجود انسان قديم جداً في تلك المقاطعات . واخيراً وبعد زمن طويل ظهرت لنا فنون الآثار القديمة عند السود . وانه بفضل جهود الباحثين فسنعرف في يوم من الايام الى أي حد تكون فيه العزلة الجغرافية الموصوفة مطابقة للحقيقة التاريخية في القارة السوداء .

---

١ — هذه الكلمة تطلق قديماً على الساحر في افريقيا الغربية . والساحر هنا يمكن ان يكون ايضاً طبيباً او شاعراً او مؤرخاً وله مكانة مرموقة في المجتمع .

أفريقيا في زمن ما قبل التاريخ

تدل الأبحاث في زمن ما قبل التاريخ التي شملت كل القـــارة السوداء ، عن وجـــود نفس التتابع المنتظم من الأعمـــال الفنية المحددة في اوروبا من قبـل الاختصاصيين .

وكذلك فان التنقيبات التي حدثت خاصة على سطح الارض قد كشفت هي ايضاً عن وجود مناجم معدنية كثيرة . ومنذ ربع قرن تقريباً بدأت الحفريات في باطن الارض وفي عـــدة مناطق ، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا كشف العناصر اللازمة لاستكمال الدراسات حول القارة السوداء . كما ان ماضي هذه القارة يختبىء وراء ثـــلاث حواجز طبيعية ، التي هي الرمل والاراضي السوداء والاراضي الحمراء . ولقد وجدت في افريقيا كلها وحتى في الجنوب آثار تعود الى العصر الحجري الأول . وكذلـــك فان المنطقة التي تقع بـــين اطار الصحراء الجنوبي وحدودالكونغو تضم عدداً من الانكسارات الأرضية العميقة. ومنذ العصر الحجري الأوسط وجدت نفس الآثار الفنية التي وجدت في اوروبا الغربية ، ولكنها تختلف عنها بانعدام التتابع المنتظم فيهـــا . اما آثار العصر الحجري الحديث فتظهر في كل مكان ما عدا افريقيا الجنوبية حيث تكاد تختفي رؤوس الحراب وفن صقل الأدوات . كما ان الاختـلاف الذي ذكرناه يعود الى طبيعة المادة نفسها .

فاوروبا مثلاً قد استغلت حجر (السيكلس) بصورة عامة ، ولكن فقدان هـــذا النوع من الحجارة في عـــدة مناطق افريقية قـــد اجبر السكان هناك على نحت حجر الصوان والحجر الرملي وحجر (الشيست)[1] والشيست القاسي والدوليريت والغرانيت وحجر الاوبسيديان . كما ان درجة الصلابـة في الحجر لها أثرها الكبير في عملية النحت . وهكذا فالتعقيد في الصناعات الافريقية الذي بدأ منذ العصر الحجري الاوسط يخرج بين صناعتين بارزتين في أوروبا : وهي صناعة (ستيلباي Stillbay) التي تتمثل في افريقيا الجنوبية والشرقيـــة وتجمع هذه الصناعـــة الفنين : الموستيريان والسوليتريان . Moustérienne et Solutréenne .

وهكذا فمنذ زمن ما قبل التاريخ نـلاحظ وجود طابع معقد ومتعـــدد الاشكال يطبع الحضارات الافريقية كلها ، حيث نرى العناصر المتعـارضة بينها تراها أمكنة اخرى واضحة المعالم .

لقد كانت افريقيا تلك القارة المتطرفة كالممر الذي لا نهاية له Cul - de - sac ولطالما وصل اليها رجال وفنيون ومؤسسات اجتماعيـــة بيد أنهم لم يستطيعوا الذهاب بعيداً بل بقوا فيها كالمحنطين غير قادرين على شيء . وأفريقيا هذه التي هي معهد للبشرية تقدم اليوم الى الباحثين مجالاً رحباً . وانما نقدر باهتمام الفائدة المرجوة على يد التحريات الباطنية التي بدأت منذ زمن ليس ببعيـــد . ونذكر ايضاً بأن طابع القارة القديم والذي حافظت عليه يظهر لنا في الرسوم والصور التي اكتشفت في الصحراء ، وكذلك في الرسوم الصخرية في افريقيا الجنوبيـــة والتي كثيراً ما قورنت بالرسوم المكتشفة في جنوب غربي اوروبا وترجع الى زمن ما قبل التاريخ .

واذا كان بعض ما انتجه صيادو البوشيمان يبدو حديثاً والبعض الآخر يبدو

---

١ — يمكن قطع هذه الحجارة الى صفائح .

قديماً فربما كان ذلك نتيجة تأثيرات على طبيعة الانتاج نفسه ، وهو ما نجهله حتى الآن . والى جانب الادوات المختلفة فقد قدمت افريقيا منذ عدة سنوات عـدداً لا بأس به من الآثار الانسانية التي عثر عليها في مناطق متفرقة . وان دراسة هذه الآثار تجعلنا نتأكد بأنه فيما سبق العصر الحجري الحديث لم يكن يوجد في أفريقيا هياكل عظمية لرجـال سود البشرة . كما انـه من المؤكد بأن افريقيا الجنوبية لم تعرف منـذ الدور الارضي الرابع الانسان الوسـط بين الشمبانزي والانسان العادي .

كما ان (الافريكانتروب Africanthrope) الذي وُجد في أفريقيا مجتمعـاً مع الحيوانات اللبونة من عصر البليوستين الحديث ، انما يمثل مستودعاً للانسانية بيد انه اقسى وأقل تطوراً من (الأومو سابيان) الذي هو وسط بين انسان (النياندرتال) و (السينانتروب) .

ونجد أيضاً بأن انسان (رباط) وانسان (ديري داوا) Dirè - Daoua ، وانسان روديسيا يجمعون صفـات متشابهـة لكل المجموعـة النياندرتالين Néandertaliens . كما ان انسان (بوسكوب Boscop)[1] الذي وجـد في (الترانسفال) هو أيضاً (أومو سابيان *Homo-Sapiens*) من العصر الحجري الراقي وقريب بنفس الوقت لانسان (كرو — ماغنون *Cro-magnon*) وبنفس الوقت من أجداد قبـائل (البوشيان) الحاليين . وكذلك انسان (مشتى العربي *Mechta-El-Arabi*) الذي هو أيضاً قريب لانسان (الكروماغنون) والذي جاء من أرومة مشتركة ربما كان أصلها شواطىء البحر الابيض المتوسط الغربية ؛ هذا الانسان هو على الاغلب جد قبائل (الغانش *Guanches*) الذين يقطنون جزر كناريا .

ويبقى اخيراً هيكل انسان العصر الحجري الحـديث !! فقد وجـد هذا

---

١ — مدينة في هولندا .

الهيكل قرب مركز (أسيلار *Asselar*) في منطقة من الصحراء غير مأهولة اليوم . كما وجد مع هذا الهيكل مجموعة من أصداف الحيوانات غير الفقرية وآثار اسماك كبيرة وتماسيح وحيوانات لبونة، وهذا الهيكل يمثل بعض التقارب لزنوج (غريمالدي *gri maldi*) ومن المعروف بأن هؤلاء قد تغيرت اشكالهم بتأثير عامل الزمن ولكن بعضاً من ملامحهم قد بقيت بين سكان البلقان .

أما زنوج غريمالدي فهم اليوم وقبل آلاف من السنين يشكلون الزنوج الحاليين . وان تغيير شكلهم عما كان عليه وهم في نفس المكان الذي يعيشون فيه اليوم يستبعد حدوث هجرات جاءتهم من شرق – جنوبي آسيا .

أشهر السلالات الافريقية

مهما كان العصر الذي ظهر فيه السود في افريقيا ثم تكاثروا فيها فانه لا شك قد حدثت بينهم اتصالات مع رجال من اللون الابيض أصلهم من افريقيا الشرقية او من الشرق الأدنى والذين هم اجداد البرابرة في نفس الوقت . ويمكننا أن نطلق على اولئك الرجـال اسم (الكاميتو — ساميين Kamito - Sémites) . نسبة الى حام Cham بن نوح ، وذلك للدلالة على أصلهم القريب من الساميين . والفرق بينهم يظهر من الناحية اللغوية أما من الناحية العرقية فهم في الأصل من سكان البحر الأبيض المتوسط . وفي أيامنا هذه فان المجموعة الغربيـة او الشمالية (الكاميتو — ساميين) فانهـا تضم عدا العرب الذين جـاؤوا مع الغزوات التاريخية (مع العلم بأن اكثر عرب افريقيا الشمالية هم في الواقع برابرة أخذوا لغة المحتلين) ؛ نقول انهـا تضم عدا هؤلاء سكان ليبيا ايضاً وتونس والجزائر ومراكش (مع العلم ان سكان البـلدين الأخيرين كلهم من البرابرة) ؛ وعدا عما ذكرناه فهي تضم ايضاً سكان صحراء موريتانيـا والسودان وهم (المورس) (والتواريج) واخيراً سكان الصحراء الوسطى وهم قبائل (الستوبو) .

وترى الحاميين الشرقيين اليوم والذين امتزجوا بالساميين والسود يؤلفون الشعب المصري بما فيه من مسلمين ومسيحيين وشعب البيدجا *Bedja* والنوبيين

والأبيسينيين *Abyssins* والغـالا *galla* والصوماليين والدانكيل *Danakil* .
كما ان علماء اللغة يميزون في اللغات (الكاميتو – ساميين) ثلاث مجموعات فرعية :

١ً – السامية ، ٢ً – البربرية ، ٣ً – الكوشيتيكيه *Couchitique* (نسبة الى بلاد الكوش *Kush*) وهي كلمة كانت مستعملة في مصر القديمة للدلالة على كل البلاد الواقعة في الجهة العليا من الشلال الثاني . أما الحاميون الشرقيون فقد أثروا بطريقة مباشرة او غير مباشرة تأثيراً عميقاً على جيرانهم السود في افريقيا الشرقية والوسطى والجنوبية .

وكذلك فالبرابرة أنفسهم قـد نقلوا بدورهم آثاراً كثيرة من مدنيـة البحر الأبيض المتوسط الى السود في السودان الغربي وغينيا . والواقع هو ان التاريخ الافريقي في جنوب الصحراء هو تاريخ اندماج تلك الصحراء عبر الأجيـال في الحضارة (الحامية) . بيد ان التأثير السامي وهو حديث العهد ، نرى آثاره محدودة في افريقيا الشمالية .

ففي الأصل كانت الاحتكاكات سهلة بواسطة التجاور بين الشعوب . كما ان علم الجيولوجيا والجغرافيا يؤكدان وجود مجار مائية هامة في مناطق الصحراء والسودان الحالية والتي كانت تنبع من سلسلة جبال الأطلس ومن هضبـة (الأحجار *Hoggâr ou Ahaggâr*) في الدور الأرضي الرابع .

كما ان وديان تلك المجاري المائية لا تزال ظاهرة بوضوح رغم مـا اصابها من ردم . ومن الخطأ ان نتصور بأن هذه المناطق التي جفت اليوم كانت تستطيـع ان تسبب ابادة مجموعة كبيرة من السكان يشهد على وجودها آثار صناعة مزدوجة . فاكتشاف الفؤوس المنحوتة وأحجار الطواحين المستديرة والاجران يثبت وجود المزارعين في الجنوب والذين هم اسلاف السود الحاليين . وكذلك في الشمال فان اكتشاف الأدوات والأسلحة التي تضم انواعـاً من السكاكين ورؤوس الحراب والنصال مما يتجاوب مع حاجات الصيادين والمحاربين والرعاة الرحل . وانـنـا

نظن بأن أصحاب هذه الصناعة كانوا أسلاف البرابرة الحاليين . كما ان الحدود التي تفصل بين مدنية الشمال ومدنية الجنوب هي صعبة التوضيح .

ويرى (جسيل *Gsell*) [1] بأنه حتى نهاية الامبراطورية الرومانية كانت تعيش جماعات صغيرة موزعة على طول الصحراء ومفصولة عن (البيض) بنهر (عويد جدي *Oued dgedi*) الذي ينبع من (الاغواط *Laghouat*) ويغيب في البحيرات المالحة الكبيرة جنوب (بسكارا *Biskara*) . وفي أيامنا هذه نرى بأنه حتى طرف الصحراء الجنوبي بأن العنصر الأساسي للسكان هو من الاصل الأبيض . وكثيراً ما يطلقون على هذه المنطقة (افريقيا البيضاء) وذلك للمقابلة مع المنطقة الافريقية التي تشمل جنوب الصحراء والتي تسمى (أفريقيا السوداء) . أما الحدود بينهما فهي تسير على خط ينطلق من السنغال ويمر بمصب نهر النيجر والتشاد ثم يدور حول الهضبة الاثيوبية من جهة الغرب حتى يصل الى المحيط الهندي .

ان (الميلانو — أفريقيين) الذين يقطن معظمهم أفريقيا السوداء يتميزون بميزة طبيعية ظاهرة ألا وهي لون جلودهم الذي يتغير من الأسمر الفاتح كما هو في بعض سكان أفريقيا الجنوبية الى اللون الأسود الغامق عند قبائل (الأولوف *ouolof*) [2] في السنغال . وتأتي مقاومة السود للحرارة من وفرة الغدد العرقية التي تفرز كمية من العرق تعادل ضعف ما يفرزه الاوربيون ، كما تأتي المقاومة أيضاً من لون جلودهم . وصفة أخرى بارزة عند السود ألا وهي التنظيم الشعري (نسبة للشعر الذي يغطي الجسم) ؛ فأجسادهم تقريباً جرداء وشعر رأسهم أجعد وأما وجود اللحية فنادر عندهم . كما ان اكتافهم عريضة وأوراكهم ضيقة بحيث يأخذ نصف جسدهم الأعلى شكل جذع مخروط . وكذلك فلا وجود

---

(١) مؤرخ فرنسي ١٨٦١ — ١٩٣٢

٢ — ويطلق عليهم أيضاً اسم (الجولوف *Jolofs*) وهم سلالة سوداء من السنغال في افريقيا الغربية الفرنسية .

لانتفاخ عضلة الساق . كما يملك السود أيضـــاً خصائص تشريحية وفيزيولوجية تختص بهم وحدهم فقط. أما لغات سود أفريقيا فتشمل لغات السودانيين ولغات (النيليين *Nilotiques*)[1] ولغات (نصف – البانتو *Semi-Bantou*) في الجهة الغربية من الغابة الافريقية ، ولغات البـانتو) والتي يتكلمها سكان المنطقة التي تمتد من خط الاستواء حتى بلاد الكاب .

وفوق تلك الأرض الواسعة التي يعيشون عليهـا والتي تخصهم وحدهم ، نرى (الميلانو – افريقيين) ينقسمون الى عدد من السلالات الفرعية التي تحمل اسمـاء جغرافية . وهي السودانية والغينية والكونغولية والنيلية وأفريقيا الجنوبية .

وان مجال كل سلالة فرعية من التي ذكرناها ينحصر الى حد مـــا في بقعة حضارية خاصة ، تعين حدودها العوامل الجغرافية او المناخية . ونذكر هنـــا بأنه اذا ما كانت المميزات التاريخية والسلالية واللغوية تطابق ما ذكرناه فان هذه المجموعات لا تبقى مستقلة تمـــام الاستقلال عن بعضها. فالحدود التي يؤكد وجودها عالم التاريخ البشري لا تطابق أبداً الحدود التي يقول عنها عـالم اللغة ، كما أنه لا هذه ولا تلك تطابق أبداً التقسيمات السلالية لهذه المجموعات.وباختصار فان تلك المجموعات منفصلة ولكنها متمازجة الى حد ما .

وان أهم سلالة فرعيــة هي السودانية أو (سود المروج الخصبة *Noire de la brousse*) . وهي تحتل منطقة السهول الواسعة التي تقع جنوب الصحراء والسنغال حتى مقاطعة الكوردوفان . ولقد قـــامت عدة ممالك قوية في هذه المنطقة الشاسعة التي تسهل الاتصالات والمعاملات مع غيرها . وزنوج السودان ذوو قامة طويلة وجسم ممشوق، وجلد شديد السواد مع وجود بروز في الكفين. أما النموذج الصحيح للسودانيين فهم شعب (الأولوف) الذين يقطنون ضواحي (داكار) . كما نجد في الجهة الشرقية قبائل (المالينكي *Malinké*) (والهاوسا

١ – نسبة الى النيل أي الذين يقطنون حوالي مجرى نهر النيل .

Haoussa) وقبائل (السارا *Sara*) على شواطىء نهر الشاري ، ويتميزون بقامتهم الطويلة (١٨٠) سنتم وسطياً وبرؤوسهم المدورة .

أما السلالة الفرعية الغينية *Guineénne* فقامتهم تميـــل الى القصر ولكنهم اكثر ضخامة ، وتقطن هذه السلالة خط الغابات الذي يحاذي خليج غينيا حتى الكاميرون . ومما يذكر أن ذبابة تسي — تسي تمنع تربية المواشي عندهم ؛ أما أمطارهم فغزيرة جداً وتشجع على زراعــة الحبوب وبعض النباتات الدرنية والايكنام *Igname* و المانيوك *manioc* . ورغم كون الغينيين أكثر فـــان ممالكهم أقل شأناً وعظمة من الممالك السودانية القديمة .

أما السلالة الفرعية الكونغولية فتنتشر على طول الغابة الاستوائية التي تمتـد الى الجنوب حتى شاطىء احد روافد الكونغو . وبنية اجسام هؤلاء ضعيفـــة بصورة عامة وكذلك فان بروز الفكين عندهم واضح اكثر مما هو عند غيرهم ، واطرافهم قصيرة الا انها مفتولة العضلات . أمـا وضعهم الاجتماعي فمنقسم على نفسه الى أقصى حدود الانقسام ، غير ان المصادر النباتية مستثمرة للغاية .

ويأتي الآن دور السلالة النيلوتية او النيلية ويتميز رجالها بطول قامتهم التي تصل الى ١٧٨ — ١٨٢ سنتم ، وأجسامهم ممشوقة ووجوههـم مستقيمة وذوو ملامح أوروبية اكثر منها افريقيـة سوداء . وتتألف هذه السلالة من جمـــاعة أصيلة صافية من رعاة (الدنكا *Dinka* والنوير *Nuer* والشيلوك *Shilluk*) .
وتسكن هذه السلالة منطقة المستنقعات والمروج التي تمتـــد من الخرطوم في الشمال حتى بحيرة فيكتوريا في الجنوب .

وأخيراً تأتي السلالة الفرعية لأفريقيا الجنوبية ، وتضم هـــذه السود الذين يعيشون في جنوب الكونغو البلجيكي والاطلنطي حتى المحيط الهندي . ويميـل لون جلود هذه السلالة الى قلة السواد وكذلك البنية العامة فهي تزيد على الوسط وبروز الفكين معتدل الملامـــح العامة رقيقة بعض الشيء . وبما انهم كانوا

دائماً ضحايا لغزات وحروب كثيرة فهم يعيشون اليوم حياة الرعاة وغالبـــاً ما يشكلون اليد العاملة في الورش الصناعية والمنجمية في أفريقيا الجنوبيـة . وان قسماً من هذه السلالة يشكل جزءاً من سـكان مدغشقر السود وينضم الى سلالتهم (الميلانيزيون *les Mélanésiens* [1] وتوجد هنـــاك عناصر من العرق الاصفر استوطنت معهم والتي جاءت من ارخبيل ماليزيا اثناء غزوتين كبيرتين الاولى في القرن الثالث والثانية في القرن الرابع وهـذه الاخيرة هي التي اسست مملكة هوفا *Hova* فوق الهضاب العالية .

اما المنطقة التي تقع في أقصى الشرق من افريقيا وهي هضبة الآبيسين وشبه جزيرة صوماليا و هذه المنطقة مأهولة بالسلالة الايثوبية ذات الجلود القريبة من اللون الاسود الغامق ، اما أجسامهم ففارعة وشعرهم مجعد ووجوههم مستقيمة وهذا ناتج من اختلاط السود بالغزاة البيض الذين اتوا على الغــالب من الجزيرة العربية او ان ذلك ناتج عن وجود مجموعـة قديمة من السكان تجمع صفات البيض والسود معاً ، وهكذا نرى ان النموذج العام للايثوبيين يختلف تماماً عن النموذج (المولدين) [2] . كما ان الذين يمثلون النموذج الاثيوبي يسكنون اليوم (هضبة الآبيسين) وهم قبائل (الغـــالا *Galla* والآبيسينيين *Abyssins*) او بمعنى اكثر دقـــة (الأمهارا *Amhara* والتيجريان *Tigréens*) .

وفي شمال الآبيسيني نرى السلالة الاثيوبية تشغل وادي النيل مع مجموعـات اخرى يطلق عليهم اسم (النوبيين *Nubiens*) حتى اعالي منطقة الشلال الثـاني حيث تنقطع فجـأة سلالات الزنوج *Négroïdes* ، وهذه الحــدود كما يؤكد تاريخ البشرية لم تتغير منذ اربعة آلاف سنة .

وفي الجهة الجنوبية حصلت اختلاطـات بين الاثيوبيين والنيليين كونت فيما

---

١ — نسبة الى ميلانيزيا ، وهي احدى الاقسام الكبيرة التي تؤلف قارة اوقيانوسيا .
٢ — المقصود بهذه الكلمة هو الرجل الذي يولد من والد ابيض وأم سوداء او العكس .

بعد ما نطلق عليهم احياناً (النصف حاميين) وهم الماساي والناندي والسوك *Suk* . وهم رجال ذوو قامات رفيعة وجلد فاتح اللون ومجعد . واخيراً ففي كل انحاء السودان الغربي من حدود السنغال حتى بحيرة (تشاد) تعيش جماعات الى جانب المزارعين السود هم (البول *peul*)[1]، الذين يتحلون بصفات اقرب للاوروبيين منها للزنوج السود . فلون جلودهم فاتح وشعرهم مموج وأنف (قانٌ *Aquilin*) .

والاعتقاد السائد اليوم هو ان جماعة (السيول) جاؤوا من الشرق ويمثلون مزيجاً من الأثيوبيين والعرب والزنوج . اما لغتهم فيمكن تصنيفها الى جانب لغة جماعة (السيرير *Sérères*) (والأولوف) أي في المجموعة السنغالية .

وفي القديم أشار اليونانيون الى وجود سكان في افريقيا ذوي قامة قصيرة جداً اطلقوا عليهم اسم الأقزام *Pygmées* . وذكر بأنهم يقطنون مصر العليا . اما هوميروس فقد تحدث في الياذته عن معارك طاحنة تحمّل وطأتها الاقزام ضد (الرهاء *les grues*) . الا ان مثل هذه الحكايات كان ينظر اليها حتى القرن الاخير نظرة الاساطير فقط . الى ان جاء (شوينفورت *Schweinfurth*) [2] فأكد وجود رجال ذوي بنية ضعيفة جداً في افريقيا الوسطى كما اكد ذلك (شيلّو)[2] وجودهم في (الغابون *Gabon*) [3] عام ١٨٦٣ .

ونحن نعلم اليوم بأن الغابة الاستوائية الواسعة تضم جماعات بشرية خاصة بحيث ان قامة رجالها القصيرة وملامح اخرى قصيرة تميزها عن الزنوج السود

---

١ — جماعة من سلالة بربرية ممتزجة بالدم العربي والاسود .
٢ — رحالة وعالم طبيعي الماني ١٨٣٦ — ١٩٢٥ .
٣ — شيلو *Chäillu* ، مسافر امريكي وصل الى منطقة الغابون ١٨٣٧ — ١٩٠٣ .
٤ — احدى المستعمرات الأربع الفرنسية التي تعد من اقدم المستعمرات في افريقيا الاستوائية .

الذين نعرفهم . هؤلاء نفسهم هم اقزام افريقيا الوسطى . ولقد اصبحت صفاتهم معروفة اليوم وأبرز شيء فيهم هو القامة التي تنقص عن /١٥٠/ سنتم ، وكذلك لون جلودهم فهو اسمر محمر ، ورغم ان شعر رأسهم قصير وأجعد الا ان اللحية نامية عندهم كثيراً ، ونرى بقية اجسامهم مغطاة بالشعر بينما نجد أجسام السود الآخرين خالية من الشعر . وكذلك رؤوسهم مدورة وأنوفهم عريضة جداً وان الشفة العليا عندهم ترسم فوق خطها الوسطي انحناءة محدبة نموذجية ، واما تناسب اجسامهم فخاص بهم . فالرأس ضخم والسيقان قصيرة بحيث تجعل اليدين تبدوان أطول مما هما عليه . والفوارق التي تفصل الاقزام عن السود الآخرين من ناحية المظهر تمتد الى الفوارق الفيزيولوجية . اذ ان الغدد الشحمية عند الاقزام ذات افرازات لها رائحة خاصة كما ان النبض عندهم بطيء وكذلك فالتركيب الدموي يختلف ايضاً . ولكل الاقزام مسكن واحد هو الغابة الاستوائية التي تمتد من المحيط الاطلنطي الى البحيرات الكبرى بين نقطة خمس درجات عرضاً من الشمال الى الجنوب . وينقسمون الى جماعات صغيرة مبعثرة ، وكلهم يعيشون على الصيد والقطاف ويجهلون الزراعة وتربية الماشية وعمل النسيج والخزف (الفخاريات) . كما لا يُعرف شيء عن أصلهم . ولكن يبدو انهم استطاعوا توسيع نفوذهم في الماضي لأن بعض العادات عند بقية السود في مناطق معينة تشير اليهم رغم عدم وجود احد منهم اليوم وهذا ما يدلنا على انهم وصلوا الى هذه المقاطعات في الماضي .

واخيراً ، وفي الطرف الجنوبي الغربي من القارة السوداء تعيش حالياً زمرتان من الجنس البشري في طريقها الى الانقراض وهما : (البوشيمان أو البوشمان *Bochiman ou Buscman*) أو رجال المراعي ، والزمرة الثانية وهي قبائل (الهوتانتوس) ويمكن اعتبار البوشيمان والهوتانتوس سلالة واحدة . وهي سلالة (الكوازان *Khoisan*) [1] . اما البوشيمان فرجال قصار القامة

---

١ — وهي عبارة عن مقطعين *khoi* وهو ما يشير به الهوتانتوس الى انفسهم ، والمقطع الثاني *san* الذي يطلقونه على البوشيمان .

/١٥٢/ سنتم وسطياً ولون جلودهم اصفر خاص يذكرنا باللون النحاسي لسكان منغوليا في قارة آسيا ، اما شعرهم فجعد كثيراً ولا يوجد شعر على اجسامهم . وبينما نرى (الهوتانتوس) يعطون ملامح فيزيائية قريبة لهم الا ان بنيتهم اطول /١٦٠/ سنتم وسطياً، وكذلك لون جلودهم غامق . ويتميز الهوتانتوس والبوشيان على الغالب بتقعر الخواصر والذي يظهر بوضوح اكثر عند النساء . ولقد تقلصت هاتان المجموعتان الى عدد قليل من القبائل المنتشرة في صحراء كالاري ، ويعيش البوشيان حياة زرية فيمتهنون الصيد وقطاف الخضار ويتكلمون لغـــة ذات (طقطقة *cliks*) . اما الهوتانتوس فذوو حضارة أرفع وهم يشتغلون في الرعي ويبـــدو انهم جاءوا من الشمال فدفعوا امامهم البوشيان الى المنـــاطق الصحراوية . وان القبائل الصافية التي بقيت منهم فاننا نراها اليوم في المروج الجنوبية التي تقع في جنوبي غربي افريقيا .

السلالات الحالية في القارة الافريقية .

- أفريقيا البيضاء
  - منطقة معتدلة
    - مصر
    - افريقيا الوسطى
    - جزر كناريا (قبائل الغانش)
  - منطقة صحراوية
    - المورس
    - التواريج
    - التوبو
- افريقيا السوداء
  - الميلانو ـ افريقيين
    - السودانيون
    - الغينيون
    - الكونغوليون
    - النيليون
    - سكان جنوب افريقيا
  - الاثيوبيون
    - الكالا والأبيسان
    - النصف-حاميون(وهم اثيوبيون مختلطون بالميلانو ـ افريقيين).
    - البول (وهم اثيوبيون مختلطون بالعرب والميلانو ـ افريقيين)
  - الاقزام ←
  - الكوازان
    - البوشيان
    - الهوتانتوس .

لغات افريقيا الحالية

- لغات الحامو ـ ساميين
  - الساميون
    - افريقيا الشمالية من مصر حتى المغرب .
    - اثيوبيا واريتيريا .
  - البرابرة
    - افريقيا الشمالية
    - الصحراء
  - الكوشيتيك
    - مصر العليا (بدجا)
    - اريتريا
    - اثيوبيا
    - كينيا (الصوماليون)
- لغات زنوج افريقيا
  - السودانية
  - النيلية
  - النصف ـ بانتو (الغابة الغينية)
  - البانتو . من الخط الاستوائي الى الكاب
- لغات الكوازان

القسم الأول

المسلمات التاريخية

الفصل الأول

افريقيا وعالم البحر الأبيض المتوسط

تعتبر الحضارة المصرية التي ظهرت منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ثمرة للبيئه الطبيعية الافريقية . ولقد ازدادت هذه الحضارة غنى بما جاءها من القارة الآسيوية . ولكن قبل ان يظهر النفوذ الآسيوي فان السكان الأصليين أجداد الفلاحين الحاليين في مصر قد استطاعوا ان يقدموا البرهان على ما أعطوه للانسانية . كما ان مصر ، ذات الأبعاد الشاذة والمحددة بوضوح ، نراها تتسع أحياناً وأحياناً تلتئم وبنفس الوقت تجاور بحرين وتتصل بالقارة الآسيوية الكثيفة السكان ؛ ان مصر هذه لا تدين بمعالم تاريخها وحضارتها البارزة الى طبيعتها التي هي طبيعة الواحات .

فمن المؤكد بأن الصناعة قد ازدهرت فيها وكذلك التجارة ولكنها تجارة قوافل فقط . كما ان الشعب المصري هو بطبيعته استقراري لا يحب الانتقال وكل ما ينعكس فيه هو ملازمته للأرض .

وكذلك فان تنظيمه الاجتماعي يعطي المرأة دوراً كبيراً بيد ان المصري لا

يقبل تعدد الزوجات . كما نرى حكامها او رؤساء المقاطعات (وملوكها المقدسين) يمارسون سلطاتهم كأوصياء على البلاد ويظهرون أنفسهم المسئولين عن ازدهارها. أما الديانة فانها تحتفظ بالطقوس القديمة المحلية . وعندما اتجهت مصر الى ديانة الاله الواحد بقيت هذه الديانة محصورة بين الفلاحين فقط لأنها ديانة تهتم بحياة الانسان اليومية كما تعطيه الأمل في الحياة الأخرى .

لا يوجد شعب أقل ميلاً للحروب مثل الشعب المصري ، ففي أربعين قرناً من الزمن لم نر الا تبدلات بسيطة في المراكز السياسية ، وهذه التبدلات كانت نتيجة أحداث خارجية . ومن خلال تلك التبدلات نستطيع ان نميز العصور الآتية : العصر (التينيت *Thinite*) ، والعصور القديمة والعصور الوسطى وعصر الامبراطوريات الجديدة .

وكما قلنا عن تعلق المصري بالارض فهو يعطي كل انتباهه الى محصولاته . أما المناخ فهو العدو الدائم له . كما ان توزيع المياه وبناء الحواجز لها وحفر الأقنية يدفعه لأن يكون على وفاق مع جيرانه ويخلق بالتالي التزامات متبادلة بينهم ، هذه الالتزامات هي عامل من عوامل توحيد البلاد وهي التي أدت فيما بعد للانتقال من نظام المقاطعات القديمة الى اوتوقراطية الفراعنة .

كما ان ضرورة الدفاع ضد أي هجوم ، وهذا محتمل دائماً ، فان مقاطعات أعالي النيل أو كما تسمى (قصر مياه مصر) قد جرّت الامراء الى انشاء علاقات مع السودان للمحافظة على مناطق نفوذهم . وهكذا فقد نشأت علاقات تجارية جمعت بين مصر والسودان النيلي وكانت هذه العلاقات تعتمد على تجارة الرقيق والعاج والذهب وجلود النمور والصمغ والحيوانات الغريبة . ومنذ ذلك العصر فقد استطاعت هذه القوافل التجارية ان تخلق اتصالات منظمة بين الكوردوفان ودارفور والمناطق المجاورة لبحيرة تشاد .

واننا نذكر بأن الآشوريين والفرس لم يتركو في مصر أثناء مرورهم فيها الا

الخرائب . ولقد كان قمبيز *Cambyse* قاسياً أثناء حكمه ، أمـــا الاسكندر فالعكس تماماً ، فلقد كان سيد آسيا الصغرى وعندمـــا دخل الى مصر استقبل كمحرر لها وليس كفاتح . فقد حمل معه الغنى والسلام ، وكان يشارك في تقديم الضحايا للآلهة ويحترم النظام القائم في البلاد . وكذلك فان البطالمة الذين جاؤوا بعده حمـــلوا لقب الفراعنة وأصلحوا المعابد رغم أنهم يونان ، مــع العلم أنهم اتخذوا مدينة الاسكندرية المستعمرة اليونانية كعاصمة لهم ؛ واستطاعوا ان يقربوا الشعب المصري المتدين والمتمسك بتقاليده الى العائلة المالكة التي هي عائلة (اللاجيد *les lagides*)[1] والتي دام حكمها زهاء ثلاثة قرون .

ونذكر هنا أنه خلال الفترة الطويلة التي تم فيهـا اشتراك مدينتين عظيمتين فقد نشأت حركة جديدة من الافكار والأعمال في صالح الاثنين معاً . فلقد احتك الفكر اليوناني مع فكر آخر متبصر نقـــاد يختلف عنه تماماً . وهكذا نشأت مدرسة الاسكندرية واتخذت مكاناً مرموقاً في تاريخ الفكر . وهكذا كشفت افريقيا لعالم البحر الأبيض المتوسط عن انتاج فكري جديد وفتحت عينيها على العالم الخارجي ووسّعت أفق علم الجغرافيا .

ومما تجدر الاشارة اليه هو ان تأثيرات من عـالم البحر الأبيض المتوسط قد دخلت الى قلب القارة الافريقية عن طريق مصر وظلت هذه التأثيرات ظاهرة فترة طويلة من الزمن . فمملكة اثيوبيـــا التي تشكل اليوم السودان المصري الانكليزي قد رأت قوتها تزداد في نفس الوقت الذي كانت فيه قوة جارهـــا تتدهور ؛ ولذلك وفي القرن الأول قبل الميلاد نرى ملكتهـــا (كانداس *Candace*)[2] تهاجم الرومان وتستولي على منطقة النوبة . ولكنهـــا لم تلبث حتى اندحرت رغم انتصارها في بادىء الأمر .

---

١ — وهي عائلة البطالمة التي حكمت بعد وفاة الاسكندر ،

٢ — لقب حملته بعض الملكات الآثيوبيات .

وفي نهاية القرن الثالث نرى حدود الرومـــان تتقهقر حتى تصل الى منطقة الشلال الأول . كما ان المقابر التي اكتشفت حديثــاً في أقصى الجنوب على حدود السودان الانـكليزي — المصري هي على الأغلب مقابر ملوك (البليمي *Blemyes*) أجداد (البيدجا) الحاليين ، والذين سيطروا على منطقة النوبــة حتى منتصف القرن الرابع .

واخيراً نقول بأنه مع مجيء الوارثـين للحضارة (الميروتكير)[1] التي هي أيضاً متأثرة بحضارة البحر الابيض المتوسط، نقول انه بمجيء هؤلاء نرى العادات والتقاليد الفرعونية تزول من مصر . كما ان الحفريات التي جرت في مقابرهم دلت على وجود طقوس في دفن الموتى قريبة من الطقوس التي كان يمارسها حـكام غانا في غرب القـــارة الافريقية ، ومن بين الأدوات البرونزية التي اكتشفت حديثاً في بلاد (اليوروبا) في نيجريا ، نرى بعض القبعات الملكية التي تذكرنا بتيجان حكام النوبة . وأخيراً فقد وجد تمثال صغير يمثل (أوزيريس)[2] وهو مصنوع من البرونز ، على بعد /٣٠٠/ كم من جنوب (الكونغولو) في الجهة الجنوبيـــة الشرقية من الكونغو البلجيكي .

ان ظهور الفينيقيين في غرب البحر الأبيض المتوسط وعلى شواطيء سيسيل وسارديـنيا وايطاليا واسبانيا ، يعود الى حوالي /١٥٠٠/ سنة قبل الميلاد . كما أن خراب قرطاجة يعود الى /١٤٦/ قبل الميلاد . وهكذا فان شوكة الفينيقيين قد دامت في افريقيا الشمالية حوالي خمسة عشر قرناً من الزمن ، واننـا لا نعرف من هذه الفترة الطويلة الا اواخرها وهي فترة الانهيار ، فعندمـا وصل الفينيقيون الى افريقيا الشمالية كان أهلها يعرفون زراعة الشعير والقمح وتربية الأبقـــار

---

(١) نسبة الى مملكة (الميروي *Meroé*) التي لم تظهر بعد اندحار المملكة كانداس ملكة المملكة الاثيوبية .

(٢) اله مصري وزوج ايزيس ووالد اوريس .

والأغنام والخيول ، وربما كانوا ايضاً على اتصال مع جيرانهم المصريين . كما كان هناك القبائل الرحل التي تمتهن السلب وتسكن المروج الواسعـة الى جانب المزارعين في السهول والجبال التي ترتادها قطعان الماشية بحثاً عن المراعي . وكان التزاحم بين القبائل يؤدي الى الحروب التي كانت تجتاح البلاد كلها . ومنذ القرن الثالث‌عشر اجتاز قراصنة صور اعمدة هرقل وبنوا مدينة (غاديز) او (غاديرا ومعناها السور) والتي تعرف اليوم باسم (كاديكس *Cadix*) ، وانطلقوا منها الى شمال الاطلنطي للحصول على قصدير (كاسيتيريد *Cassiterides*) وعلى عنبر بحر البلطيق . كما ان (ليكسوس) ، المستعمرة الفينيقيـة على ساحل المحيط الاطلنطي في مراكش هي مشابهة لمدينة (غاديز) بالنسبة لجبل طارق وأقدم من مدينة قرطاجة . وكذلك فان مدينة (اوتيك *Utique*) التي تقع عند مصب نهر المجرده ، تسيطر على حوضي البحر الأبيض المتوسط ؛ ولكنها بدأت تضمحل فيما بعد بينما اخذت قرطاجة تحل محلها وتزدهر . وهي التي انشئت حوالي/٨٠٠/ سنة قبل الميلاد على منفذ احدى المقاطعات الخصبة وعند التقاء عدة طرق تجارية ، والتي استطاعت فيما بعد ان توجد عدة مستعمرات لها تمتد من خلجان السيرت حتى بلاد مراكش على المحيط الاطلنطي .

ويذكر هيرودوت بأن حملة قد جهزت حوالي عام /٦٠٠/ ق. م بقيـادة فرعون (نيشاو) الثاني ضد الفينيقيين . بينما تلقى هؤلاء الأمر بدورة بحريـة حول ليبيا ، منطلقين من البحر الأحمر ، وسيعودون من دورتهم هذه بعد ثلاث سنوات وبعد ان يكونوا قد اجتازوا اعمدة هرقل . وان دورتهم هذه كانت موضع جدال شديد . كما كان يُشك بامكانية الفينيقيين للقيام بمثل هذه الرحلة البحرية على طول شواطىء أفريقيا في عصر كان السبأيون *Sabéens* في عدن يعرفون آنذاك بخبرتهم القوية عدا عن انهم كانوا يرتادون الشاطىء الشرقي حتى بلاد نتاليا .

ونذكر بان ازدهار مدينة قرطاجة قد الزمها التخلي عن سياستها الشديدة التي

كانت تتبعها . وبما انها كانت مهددة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بمزاحمة اليونانيين لها ، فقد انشأت جيشاً قوياً وضمت اليه المرتزقة وسكان البلاد الاصليين، كما استخدمت سياسة التحالف مع الزعماء المجاورين لها . وبدأت بعد ذلك تهتم بالزراعة لتقوية اقتصادها الذي كان يعتمد على التجارة فقط ، فحصلت على مناطق واسعة واوكلت الى مواطنيها الاشراف على استثمارها من قبل سكانها الاصليين الذين تحولوا الى رقيق يعملون لحساب الفينيقيين . ولكي تحمي حدودها من البدو الرحل فقد انشأت قرطاجة مراكز محصنة ، ولم يمض وقت طويل حتى امتدت سلطتها الى شواطىء اسبانيا الجنوبية وجزر البليار وسرديني وسيسيل . كما كانت تملك مستعمرات على ساحل الاطلنطي وان احد أساطيلها كان يصل الى نهر (دراع *Draa*) . هذا ما يقوله البعض ، أما البعض الآخر فيرى بانهم توغلوا في الجنوب الى ابعد من ذلك أيام جولة (حنون)[١] البحرية .

واذا كان المجال التجاري الفينيقي قد شمل البحر الأبيض المتوسط ، فقد أقاموا ايضاً اتصالات مع شعوب (الغارامانت *Les garamantes*) الذين هم على الأرجح أجداد (التواريج) . كما ان (الفزان *Fezzan*) موطن شعوب الغارامانت كانت تشكل مملكة ذات كيان بارز وان عاصمتها القديمة (جرما *Djerma*) قد حافظت على اسمها حتى اليوم . وانه بفضل خط الواحات الذي يربط (الفزان) بالساحل الشمالي ، وبفضل مواضع المياه الكثيرة التي توجد باتجاه السودان فقد أصبحت الفزان طريقاً للمواصلات عبر الصحراء ، ومنذ خمسة قرون قبل الميلاد فقد كان هيرودوت يعرف الطريق التي تصل الساحل بمنطقة الفزان والتي يستغرق قطعها مدة ثلاثين يوماً تقريباً . وفي ايام قرطاجة كانت قوافل (الغارامانت) تحمل الى المدن الساحلية على البحر الابيض المتوسط الريش وبيض النعام والرقيق الذين جلبوا من افريقيا الوسطى ، ومسحوق الذهب من السودان ، وربما معدن القصدير من هضبة باوتشى في نيجيريا الانكليزية

(١) ملاح قرطاجي في القرن الخامس ق. م. قام بجولة حول افريقيا .

الحالية . كما ان اجتياز الصحراء كان يتم بواسطة الثيران والخيل والحمير لان الجمل لم يكن معروفاً بعد . ويمكننا ان نتصور اولئك التجار تماماً مثل من جاء بعدهم في القرون الوسطى ، الذين ما ان يجتازوا الصحراء حتى يحطوا رحالهم في مراكز مؤقتة تقع على طرف الصحراء قرب المقاطعات المجاورة حيث يقدمون الملح والأقمشة والنحـــاس والمصنوعات الزجاجية مقابل الذهب الذي جاؤوا ينشدونه .

ان هذه المبادلات التي دامت زهاء عدة قرون تجعلنا نعتقد بأن القرطاجيين ومن قبلهم المصريين قد ادخلوا الى سود افريقيا بعض معالم الحضارة ، كما اننـا لا نشك مطلقـــاً بأن تلك الطرق التي تبدأ من البحر الأبيض المتوسط وتنتهي في السودان قد كانت موجودة منذ القديم . ومن هذه الطرق نجـد الطريق التي تنطلق من ليبيا الى (البوركو *Borkou*) [1] وتصل الى بحيرة تشاد مع تحول يؤدي الى نهر النيجر ، أما الطريق الثـــانية فتبدأ من مصر العليـا ثم تعبر الكوردوفان والآوادي *ouadai* والباجيرمي *Baguirmi* .

أما ضواحي بحيرة تشاد فقد كانت دائماً على اتصـــال بمدينة البحر الأبيض المتوسط بحيث نجد كثيراً من معالمها والتي تمتد حتى تظهر في خليج غينيا .

كما ان الحصان الذي كان قد اختفى من افريقيـــا الشمالية في اوائل الدور الأرضي الرابع *quaternaire* ، لينتقل الى آسيا الوسطى اثر التبدل الذي طرأ على المناخ . ولكنه عـــاد فدخل افريقيا عن طريـق مصر اثر غزوة (الهيكسوس) [2] كحيوان يستعمل للجر والركوب ، فهو قـد استعمل اولاً للجر ثم بعد ذلك للركوب . أمـــا في أفريقيا فيبدو انه استعمل لجر العربات

---

(١) منطقة من السودان الاوسط تقع في غرب نهر النيجر .

(٢) هذا ما يقوله العالم الفرنسي ماسبيرو .

الحربية . وهناك رسوم صخرية تعين الطريق التي استطاع المغرب بواسطتها ان ينقل الحصان الى جنوب الصحراء في القرون الاولى التي سبقت الميلاد ، وليس بمستبعد ان يكون قد وُجد في مناطق الصحراء خيول مشابهة للتي نقلها المغرب جاءتها عن طريق مصر والسودان الاوسط .

هناك دلائل واضحة للنفوذ المصري في كل أفريقيا الشرقية وحتى في نيجريا حيث نرى احتفالات التنصيب واحتفالات تجديد بعض الملوك المقدسين تذكرنا تماماً بالطقوس المصرية (سيد *Sed*) .

وكذلك فان فكرة (الملك المقدس) تشاهد في عدة ديانات الا انها لا تحمل ذلك الرباط الضيق الذي بواسطته نرى المصريين وسود افريقيا يربطون بين صحة الملك ووفرة الغلال .

اننا نجهل بالضبط في أي زمن عرف السود زراعة القطن وعمل الخيطان ونسج القطن . بيد ان طريقة النسج العامودية يمكن ان يكون أصلها من مصر ، بيد ان المصريين القدماء لم ينسجوا او يصنعوا الخيطان الا من الكتان . وكذلك صناعة القوارب من القصب وصناعة كلاليب *harpous* عند صيادي (بودوما *Boudouma*) لا تزال آثارها ظاهرة في الرسوم المصرية القديمة . وأيضاً فان صناعة الأوتار والقيثارة المقوسة والطنبور ذو المقبض الطويل وفخاخ الصيد التي تصنع من الخيزران وتُربط بأخشاب كبيرة بحيث لا تتمكن الطريدة من الجري عندما تقع قائمتها في الفخ ... هذا عدا كثيراً من الشواهد التي تدل على نفوذ شرقي في أفريقيا الوسطى . ويظهر هذا النفوذ جلياً في صناعة البرونز وفي الصناعات الزجاجية التي عمّت عدة مناطق ، وفي الدين ايضاً كعبادة (الاله — الكبش)[1] (*Belier-dieu*) ، والطقوس في استعمال الفأس المزدوج .

---

١ — ربما يقصد من كلمة الكبش *Belier* ، برج الحمل أحد البروج الاثنا عشر التي تشكل مجرى الشمس الظاهر .

وأخيراً فقد ثبت أن السيوف ذات القبضات المتصالبة التي كان يستعملها التواريج والبول هي من أصل بيزنطي وحتى دروة قبائل البورنو والأدمـــاوا *Admawa* . ولا نقصد هنا بكلمة نفوذ ، مجرد نفوذ عابر ظهر مرة واحدة ، بل نقصد بهذه الكلمة تلك التيـــارات من التأثيرات التي لم تنقطع أبداً بحيث أصبح متعذراً معرفة تاريخ دخول كل عنصر من هذه العناصر الحضارية . وان آخر ما وهبته قرطاجة الى القـــارة السوداء هو اسمها التي تعرف به اليوم . ففي زمن الحروب الفينيقيـــة كان مؤرخو اللاتين يطلقون اسم (آفري *Afri*) على القرطاجيين وأتباعهم . وفي زمن الامبراطورية الرومـــانية فان كلمة (أفريكا *Africa*) التي دخلت اللغة الفينيقية بقيت الاسم الرسمي لمقاطعة قرطـــاجة ، وذلك لتميزهـــا عن نوميديا *Numidi* وموريتانيا . وحتى في أيامنا هذه نرى العرب يطلقون اسم (أفريكيا *Ifrikia*) على البلاد التي ندعوها (تونس) .

ان الكـُتاب الذي تحدثوا عن تأثيرات مصرية وفينيقية في أفريقيا الغربية ، قد اعتمدوا على وجود اللآلىء الزجساجية القديمة التي وجدت في داخل شاطىء العاج والشاطىء الذهبي (وداهومي *Dahomey*)[1] ، وحتى في افريقيـــا الاستوائية . وفيما نعرفه اليوم فـــانه من المستحيل ان نعين مصدر وتاريخ هذه اللآلىء التي لم تكتشف كلهـــا في ظروف علمية بحتة . ان هذه اللآلىء هي من بلاد البحر الأبيض المتوسط ولكن يبقى علينا ان نعين احد مصادرهـــا المصرية والفينيقية والرومانية والعربية (والفينيسة *Vénitienne*)[2] .

... والواضح ان القرطاجيين لم يتركوا أي دليل يسمح لنا باكتشاف هويـة السود الذي كانوا يتصلون بهم. أما العصر الروماني فقد بدأ يتميز بارسال البعثات العلمية . فبعد الحروب الفينيقية وعصر الاضطرابات الذي تبع تلك الحروب ،

---

١ — احدى مستعمرات أفريقيا الغربية .
٢ — نسبة الى البندقية او فينيسية في ايطاليا .

نرى أوغست *Auguste* ، سيد أفريقيا الشمالية يمارس سلطته التي امتدت حتى حدود الصحراء . ولقد تمركز الرومان بقوة في افريقيا الشمالية التي كانت مقسمة الى مقاطعات هي : موريتانيا ، نوميديا ، أفريقيا ، سيرانايك ومصر . وكان لا بد من حماية هذه المقاطعات ضد غزوات قبـــائل (الفيتول *Vétules*)[1] في الغرب ، (والغارامـــانت *Garamantes*) في الشرق . ولقد اصبحت غزوات تلك القبائل تزداد ضراوة يوماً بعد يوم وذلك بسبب دخول الجمل الى القـــارة الافريقية في بدء التـــاريخ الميلادي . وحتى البرابرة الذين يتقنون تربية الجمال وركوبها قد ضاعفوا تحركاتهم في الصحراء القاحلة . والذي يبدو هو ان الرومان لم يتمكنوا من استخدام الجمال ليستثمروا القارة السوداء . واذا كان نيرون قـد أرسل بعض قواده لاكتشاف منابع النيل ، فاننا لا نعرف في الغرب الا بعض البعثات العسكرية والتي كانت عبارة عن هجمات لصد الغزاة ولحماية أتبـــاع الامبراطورية الرومانية .

واننا نرى بعد سوتنيوس بولينوس ، وبعد احتلال الفزان *Fezzan* من قبل ك . بالوس في العــــام التاسع عشر قبل الميلاد ؛ نقول بأن نرى هناك حملتين رومانيتين فقط ، بحيث لا نعرف عنها الا الشيء القليل . كما ان (سيبتيموس فلاكوس) حوالي عام ٧٠ بعد الميلاد قد استطاع الوصول الى بلاد الاثيوبيين في مدة ثلاثة أشهر دافعاً أمامه قبائل الغارامانت . وفي عــــام ٨٦ نرى جوليوس ماتيرنوس يصل منطقة الآجيزمبــــا (التي تضم بلاد الآيير *Aïr* والبورنو) والتي تخص الآثيوبيين والمليئة بحيوان الكركدن .

لم يبد بأن كل هذه البعثات قد وصلت الى نتيجة عملية . والواقع ان الجمهورية الرومانية قد اعوزها اللحاق بالارث القرطاجي التجاري . كما ان التجـــارة عبر الصحراء لم تترك هكذا دون تشجيع من قبل الرومان أنفسهم . كما ان مدن

---

١ — شعب بربري قديم .

أفريقيا الشمالية لم تنقطع أبداً عن طلب المنتوجات السودانية من تجار القوافل ، وهذه المنتوجات هي الرقيق ، والعاج ، والريش ، وبيض النعـــام والحيوانات المفترسة لأعمال السيرك *cirque* ، وأخيراً الذهب ولا شيء غير الذهب .

ونذكر انه بعد دمار قرطاجة فان ليبتس *Léptis* او طرابلس هي التي حلت محلها وتسلمت زمـــام التجارة الصحراوية عبر منطقة الفزّان . كما ان قوافل النوميديين *Numidiens* ، بقيت ترتاد بكثرة مدن البحر الأبيض المتوسط ، حتى شملت كل المستعمرات الفينيقية تقريباً ، وهكذا فقد نشأ مزيج من القرطاجيين وسكان البلاد الأصليين أدى الى خلق شعب جديد حافظ على تقـــاليد المدنية الفينيقية الراقية حتى بعد خراب الدولة كلهـــا ، وبقي يحمل اللغة والعادات الفينيقية .

ونذكر هنا ان انتشار ديانة الاله الواحد وظهور لغة سامية قد مهدا الطريق في افريقيا الشمالية للدين الاسلامي واللغة العربية . وبالاضافة فان الفينيقيين قد جلبوا الى هذه المناطق طريقة غرس الأشجار كالزيتون والتين والكرمة التي لم تكن معروفة قبل وصولهم اليها .

وهناك نفوذ سامي* آخر قد دخل افريقيـــا قبل الاسلام . ففي القرون الاولى التي سبقت عصر الميـــلاد ، هرب بعض البرابرة اليهود خوفاً من الظلم والاضطهاد ، من افريقيا الشمالية ولجأوا الى منطقة واحات (تُوات *Touat*) . وبما انهم من العمال الفنيين والتجار فقد تمكنوا من ان يلعبوا دوراً هاماً في تجارة الذهب ، حتى ان بعضهم قد وصل إلى السودان . وفي عام ١٤٨٦ صدر أمر من ملك البرتغـــال يقضي بنقل اليهود الذين تحت حكمه ويرفضون بنفس الوقت تغيير عقيدتهم الدينية الى شاطىء غينيا . وهكذا ابعد آلاف من الاسرائيليين الى المستعمرات البرتغالية في افريقيا حيث استوطنوا هنـــاك وتزوجوا بنساء أهل البلاد .

ولقد نشأت مستعمرة يهودية في جزيرة (سان تومي) وقد امتزج اهلهـــا

بالسكان الاصليين وكانوا اول من بذر بذور شجر الكاكاو الذي يكون اليوم ثروة غينيا الافريقية .

وفي القرن الخامس كان الغزو (الفاندالي *Vandale*) [1] ضربة لافريقيا الرومانية بحيث ان الاحتلال البيزنطي لم ينقذ شيئاً .

وكذلك مصر نفسها فقد هربت من الغزو الفاندالي حيث اقيم فيها الحكم البيزنطي دون ان يصطدم بالحكم الروماني . بيد ان الحكم كان اسمياً فقط بحيث لم يمنع مصر من ان تكون عرضة للنهب من قبل حكام المناطق فيها وعرضة لحروب دينية أدت الى انقسام الاقباط وكذلك فقد كانت القبائل المحيطة بها تهاجمها بلا انقطاع .

وفي هذه الفترة كان الاحتلال العربي يقترب منها ؛ فسوريا وما بين النهرين وفلسطين قد وقعت كلها في ايدي العرب المسلمين . وكذلك فان مصر ومن ورائها كل افريقيا اللتين كانتا تعانيان فقدان السلطة في الحكم لم تستطيعا الهرب من المصير المحتوم[1] .

---

(١) بعض الشعوب الالمانية القديمة .

(١) يقصد بالمصير هنا ، وقوع مصر وافريقيا في يد العرب المسلمين وهو نفس المصير الذي وقعت فيه سوريا وبقية البلاد العربية .

الفصل الثاني

الإسلام في أفريقيا

لقد دخل الدين الاسلامي بعد انطلاقه من الجزيرة العربية قارة افريقيا عن طريقين . سهول البحر الأبيض المتوسط والشاطىء الشرقي .

افريقيا الشرقية

لقد عمل العرب على طول الساحل الشرقي تماماً كما عمل غيرهم من سبأيين وأعاجم وهندوكيين الذين جاؤوا قبل العرب واقاموا فترة طويلة في هذه المنطقة . وفي الواقع فان سلطة ملوك العرب لم تمتد الا على بعض التجار الذين من اصل آسيوي والذين يقيمون قريباً منهم كما تمتد ايضاً على بعض السكان الاصليين الذين يسكنون على حدودهم مباشرة . ولقد وجد العرب مصدر ثروتهم الرئيسي في بيع الرقيق وذلك بواسطة بعض زعماء قبائل السود في الداخل والذين كانوا على اتصال بالعرب ، فكان هؤلاء الزعماء يحصلون على الرقيق بواسطة شن الغزوات . ولقد أثرت تجارة العبيد هذه بعض سلاطين قبائل

كيلوا وسوفالا وزنجبـار ، كما سببت الدمار في نفس الوقت لاولئك السكان التعساء الذين تحملوا ذلك عدة قرون دون ان يحصلوا على فائدة من تلك العلاقات التي أقامها السود مع الشرق .

ان منطقة الآبيسيني *Abyssinie* هي عبارة عن مثلث جبلي يشغل الجانب الجنوب الشرقي من مصر ، وتشكل سلسلة من الهضـاب المجزأة حيث تسير مجاري المياه بسرعة في وديان صنعة تشرف عليها القرى الممتدة فوق المنـاطق الصخرية . وبما انها متعزلة عن مصر بواسطة الصحراء النوبية فانه لا يمكن قطع هذه الكتلة الآبيسينية الا بواسطة موانيء البحر الأحمر . ومن ذلك الممر الوحيد المحفوف بالمخاطر عبرت موجة من المهـاجرين العرب متجهة الى الآبيسين نظراً لخصب هذه المنطقة . وباندماج هذه الموجة مع سكان البلاد الاصليين بدا أن القبائل العربية استطـاعت ان تكون نواة الشعب الآبيسيني الذي اكتسب الحضارة السامية . فالقبيلة العربية حبشات *Habashat* قد اعطت اسمهـا الى البلاد التي تسكنها وهو (حبشة) وهذا ما تشير اليه الشعوب التي تتكلم العربية . وهناك قبيلة اخرى هي (آغازي *Agazi* التي تركت لغتهـا الى جانب اللغة القديمة وهي (الغيز *le ghieze* والتي بقيت لغة الطقوس الدينية ولغة الكنيسة فقط . كما ان ذكرى الاتصالات القديمة باليمن قد بقيت ظاهرة في الأساطير القديمة الاثيوبية التي تنظر الى الآبيسيني على انها بلاد ملكة سبأ وترى ايضاً بأن العائلة المالكة قد جاءت من ذرية ابن ملكة سبأ بزواجها من سليمان . كما ان سكان الجزيرة العربية كانوا ينظرون دائماً الى سكان الآبيسيني كعبيد سود . ولقد تجمعت شعوب الآبيسيني الحامية الأصل والمطبوعة بطـابع الساميـين ، حول نفسها وشكلت مملكة تعود الى القرن الأول بعد الميـلاد ، ألا وهي مملكة آكسوم *Axoum* والتي تشبه الى حد ما مملكة التيجري *Tigré* . وفي القرن الرابع بعد الميلاد اعتنق الملك الدين المسيحي الذي انتشر شيئـاً فشيئاً حتى عمّ جميع انحاء البلاد . وان المسيحية في الآبيسيني التي تؤمن بالطبيعـة الواحدة للمسيح قد بنيت على اسس مسيحية الاقباط في مصر ، كما اننـا لا ننسى وجود

آثار لديانات وثنية ولبعض العناصر اليهودية التي جاءت الى تلك البلاد قبل المسيحية او معها وكانت سبباً في الحماس الذي رافق انتشارها .

أما النفوذ اليهودي الذي ظهر في الحجاز واليمن قبل ظهور الحركة الاسلامية بعدة قرون فهو يبدو لنا واضحاً بوجود الفالاشا *Falacha* ، في بعض المناطق الوعرة والتي تشكل نواة قديمة للسكان اليهود الذين يحتفظون بالاتجاه الارثوذكسي في الدين اليهودي . وفي القرن السابع نرى بعض القبائل السامية التي دفعتها الحركة الاسلامية بعيداً عن البحر ، تذهب بعيداً الى الجنوب بحيث تبقى (جزيرة كوراكي *gouragué*) أقدم شاهد على وجودهم هناك . ونرى في خلال الفترة التاريخية المظلمة التي توالت بعد ذلك ، ان مملكة أكسوم قد احتلت الهضاب العالية في الوسط . وفي القرن الثامن انضمت مقاطعات . (أمهارا وغوديجام وشوا) ما عدا بعض المناطق الصعبة حيث بقي سكان (الآغاو *agaou*) يحافظون على لغتهم الحامية وعلى ديانتهم الخاصة .

وفي اوائل القرن الرابع عشر دخلت الشعوب الصومالية في الدين الإسلامي، ثم اطلقت نحو هضبة الآبيسين غزوات هدفها الوحيد النهب والتخريب . وقامت حركة اثر ذلك كان لها نتائج هامة ، وهي حركة (الغالا *galla*) وهي تضم شعباً قريباً للصوماليين من الناحية العرقية ؛ ومنذ القرن السادس عشر نرى شعوب (الغالا) تجتاح بموجاتها المتتالية الهضاب العالية وتقتطع بعض المناطق بحيث عزلت السكان الاصليين في بعض الاماكن المتفرقة . ولقد بقي معظم (الغالا) على الدين الوثني ما عدا البعض الذين دخلوا الدين الاسلامي وتعصبوا له وبعضهم الآخر بقي مسيحياً يمجد العذراء والمسيح مع بقية آلهتهم .

وفي اواخر القرن الخامس عشر ظهرت اول دفعة من المسافرين البرتغاليين وكان هدفها الأول السيطرة على التجارة مع الشرق والتي كانت بيد الفينيسيين ، كما جذبتهم الى هذه البلاد شهرة (بريت جان)[1] . ولم يلبثوا حتى انضموا مع

---

(١) *prête jean* ، شخص اسطوري ربما كان ملك التتار او ملك الآبيسين .

ملك اثيوبيا المسيحي . بيد ان المبعوثين اليسوعيين الذين لحقوا بهم قد فشلوا في محاولتهم وابعدوا عن البلاد في القرن السابع عشر . ومنذ ذلك التاريخ نرى الشعب الآبيسيني الجزأ في العالم الخارجي يعيش منطوياً على نفسه ولا يشغله سوى دينه ومدنيته .

افريقيا الشمالية

لقد كان الغزو العربي سريعاً ومفاجئاً في المنطقة السهلية التي تمتد من مصر الى المحيط الاطلنطي . فبعد وفاة النبي قامت حركة بين القبائل العربية التي دخلت الاسلام منذ وقت قصير . وتدعي هذه الحركة بأن أبا بكر خليفة الرسول . ولذلك فقد رأى من الاصلح ان يوجه قوة انصاره الى المناطق الضعيفة التي يسيطر عليها الفرس والبيزنطيون . وهكذا انطلقت جحافل الاسلام من الجزيرة فكانت عبارة عن تزاحم خليط من قرصان ونخاسين وغزوات بدوية تهاجم سكان البلاد .

وفي عام ٦٤٦ سقطت مصر بيد العرب كما سقطت طرابلس أيضاً عام ٦٦٧ . الا ان القضاء على الشعوب البربرية كان صعباً للغاية . ومع ذلك فمنذ عام /٧٠٥/ احتل القادمون الجدد من العرب المراكز الرئيسية، وهكذا وجدت الامبراطورية العربية في أفريقيا الشمالية نقطة ارتكاز قوية . حتى هذه الساعة كان هذا العمل يُعدُّ اهانة موجهة ضد بيزنطة ولذلك لم يحرك أحد من سكان البلاد ساكناً ضدهم. ولكن ما ان ظهر العرب بمظهر من يريد استغلال البلاد واستثمارها لانفسهم حتى ثار البرابرة في عدة مناطق بزعامة رجل يدعى (كوسيلا *Koceila*) ثم بزعامة امرأة هي (الكاهنة *Kahena* ملكة جيراوا *Djeraoua* في منطقة الاوراس الشرقية. وكان هذا العمل عبارة عن حركة عامة اضطر العرب المحتلون ان يجابهوها بقوة . فجاءت نجدات من الشرق لتحقق انتصارهم . وعند ذلك توجه البرابرة لاحتلال اسبانيا وبلاد الغول . ولكن بعد هزيمة بواتيه حصلت

الشقاقات عديدة . فقد غضب المغرب من وطأة الاستعمار العربي، كما ان الاندفاع الديني قد خلق بعض البدع والحركات العدائية كحركة الخوارج في مراكش . ولكن منذ نهاية القرن الثامن عمت السيطرة العربية كل أفريقيا الشمالية . وبعد فترة من الفوضى الشديدة نرى ممالك من أقوام البرابرة تتجمع حول تلمسان وسجلماسان في الريف الأفريقي . كما ان احد أحفاد الإمام علي صهر الرسول يؤسس في مراكش الدولة الادريسية متخذاً من مدينة فاس عاصمة له . وفي القرن العاشر ، أعلن زعماء الشيعة ، وهو مذهب جديد في الاسلام ، عن مجيء المهدي ثم أسسوا الدولة الفاطمية التي كانت تميل الى ابتلاع البرابرة والى ضم مصر وفلسطين وسوريا . ورغم قوة هذه الدولة الجديدة فقد استطاع المغرب ان يفلت من حكمها وان يعتمد الادارسة على خلفاء (كوردو)[1] . وحوالي منتصف القرن الحادي عشر أرسل الخليفة الفاطمي قبائل (بنو هلال) وهي قبائل تعتمد على السلب والنهب وتقطن مصر العليا ، الى حاكم القيروان انتقاماً منه لأنه لأنه يرفض الخضوع له . ولقد دمر الغزو الهلالي كل افريقيا الشمالية واعطى البرابرة مثالاً على فوضى الحكم . بيد ان المغرب وحده استطاع ان يتفادى الدمار الشامل بالتجائه الى البرابرة . أما دولة الأدارسة التي كانت في الواقع مجزأة بين اسبانيا والقاهرة فقد بدأت تفقد شيئاً فشيئاً مقاطعاتها — الا ان بعض القبائل من البرابرة والتي لجأت قديماً الى الصحراء قد أرادت ان تحمل على عاتقها عبء الاسلام وأن تعمل من مراكش مركزاً لانطلاقها . وانه بواسطة هذه القبائل انقذ كيان البرابرة في مراكش وتابعت عملية نشر الاسلام سيرها من جديد . ولقد استطاع هؤلاء البرابرة رعاة الابل في الصحراء ان ينقلوا الدين الاسلامي الى بلاد السنغال ، والى المدن التي توجد في جنوب الصحراء . ومنذ عام / ٧٣٤ / وبعد عامين من معركة بواتيه تؤكد المصادر التاريخية العربية عن وجود حملة الى المناطق الجنوبية حيث كانوا يبادلون الأقمشة وملح الشمال مقابل

---

١ — مدينة في اسبانيا . وعاصمة الدولة الأموية .

لرقيق والصمغ وخاصة الذهب السوداني . كما ان (غـــانا) (وأوداغست) (وجـــاو) كانت تستقبل القوافـــل التي تتجمع في (سيجيلماس) وتلسان (والتيازيت *Tiaret*) وبسكره وجرما *Djerma* ، وعلى كل حال فقد عـــاش الدين الاسلامي في السودان جنباً الى جنب مع الديانة المحلية في جو من التسامح كما يشير البكري *EL-Bekri* الى ذلك . وفي القرن الخامس عشر قامت حركة دينية عند (اللمتونا *Les Lemtouna*) وهم جماعة بربرية ملثمة تعيش في تاجان والأوراد وتابعون في نفس الوقت الى مملكة غـانا السوداء . ولقد ذهب زعيم اللمتونا الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج عام (١٠٣٣) وهنـاك اطلع على حقيقة دينه التي يجهلها فقرر من هناك اصلاح رعيته . وفي سبيل تحقيق ما قرره فقد جلب الى شعبه خطيباً وواعظـاً من البرابرة يدعى ابن ياسين وافتتح واياه حملة دينية واسعة . ولم يلبث ان انسحب الاثنـان في غمرة من اليأس مع بعض اتباعهما الى جزيرة تقع في اسفل بلاد السنغال حيث أسسا مكاناً للعبادة هنـاك (رباط *Ribat*) فعرفوا بعد ذلك بالمرابطين . وعندمـــا كثر عددهم ، خرج المرابطون من جزيرتهم وبدأ جيش المؤمنين بالهجوم دون سابق انذار . فسقطت غانا عام ١٠٧٦ وتمكن المرابطون من نشر الدين الاسلامي بالقوة في جميع انحاء الصحراء الغربيـــة حتى جنوب مراكش . ثم احتلوا بعد ذلك (سيجلمسا *Sidjilmessa*) ولكن ابن ياسين استشهد في غمرة الحروب المقدسة فجـاء بعده (ابن تاشفين *Ibn Tachifine*) واسس مدينة مراكش وجعلهـــا عاصمة له . وفي عام (١٠٨٢) كان المرابطون يحتلون كل شمال غربي افريقيا حتى الجزائر ، وكانوا يقيمون المساجد في كل مكان . كما ان فكرة الدفـــاع عن الاسلام ضد المسيحيين حملت ابن تاشفين الى اسبانيا . بيد انه توفي وترك وراءه مملكة واسعة تضم من اسبانيا حتى نهر (الايبر *Ebre*) مع اكبر قسم من المغرب . ثم يجيء بعد ذلك دور مراكش الـــتي قادت بعد تلك الفترة مجموع الأحداث في افريقيا الشمالية . اما مصر فلا شك انها بقيت مستقلة عن العرب بيد انهـا كانت مقسمة بالاضطرابات الداخلية من ثورات محليـة وانقسامات دينية... الخ. ولكن بعد

ثفسخ المملكة الفاطمية أسس صلاح الدين الأيوبي عام ١٤٧١ عائلة حاكمة جديدة بعدهم، الا ان المماليك استطاعوا ان يحلوا مكان عائلة صلاح الدين وان يستولوا على على الحكم بعد قرن من الزمن . وبما ان مصر تكون الخط الشرقي من القارة الافريقية فقد كان عليها أن تقاوم بكل قواها ضد الاكراد والمغول والأتراك .

وفي القرن الثالث عشر قامت عائلات بربرية حاكمة وكان مركزها تولس وتلمسان . وكان على مراكش وحدها التي انطلق منها الاحتلال ان تضرم نار الحرب المقدسة في كل لحظة .

ومما يجدر ذكره بأن تعاقب العائلات الحاكمة في افريقيا الشمالية ومشروعات الفتوحات كانت تقوم باسم التشريع الديني والرجوع الى الخط الاسلامي القويم . وكان المرابطون يريدون تطهير عقيدة الذين دخلوا الاسلام من جديد ورفع الشوائب منها وادخال الدين الاسلامي في قلوب الاعداء . وانه في سبيل تغيير التقاليد الفاسدة التي تأثرت بالاندلسيين ولاقامة عقيدة التوحيد المقدسة نرى المهادين *Les Almohades* يستولون على زمام السلطة ويطردون المرابطين . بيد ان المهادين تخلوا عما وعدو بالقيام به فتركهم أصحابهم والتابعون لهم فضعفوا وأدى بهم الأمر الى احتلال مراكش من قبل (الميرينيديين *les mérinides*) ولكن لم يمض وقت طويل حتى قامت حركة اسلامية جديدة فطردت الميرينيديين لايمانهم الفاتر واستلم زمام السلطة الأشراف (السعديون *Saadiens*) وجاء بعدهم الاشراف (العلويون *Alaouites* أحفاد النبي وبفضل قوة هؤلاء الزعماء الدينية استطاعت مراكش ان تفلت من الاحتلال التركي الذي خيم على باقي اجزاء المغرب كلها . والذي نراه هو أن السعديين ومن بعدهم العلويين لم يظهروا أي تقصير في الدور الديني الذي أوكل اليهم بل كانوا بحق أبطال الحرب الدينية .

والحقيقة ان أغلب أسس الوحدة السياسية تكمن في السلطة الدينية ؛ لأن الترابط الديني في أفريقيا الشمالية كان يحتل مكان الولاء للحاكم وهو الذي يخلق او يهدم العائلات الحاكمة وحيث لا يمكن لأي تنظيم آخر ان يؤمن لنفسه البقاء الا بذلك الترابط .

لقد قارنوا في الماضي الدولة المراكشية باقطاعية ؛ ولكنها اقطاعيـــة ذات روابط هزيلة اذ ان كل شيء يستمد من شخص الحكم فقط . وفي تاريخ مراكش توالت الانكسارات والانتفاضات والتوسعات ثم الانكماش والتراجع ؛ فلقـــد ضمت مراكش اسبانيا اليها في فترة من الزمن وكذلك افريقيا وموريتانيا وامتدت حتى وصلت النيجر . وكان الذهب والرقيق يتدفقون على مدينة فاس ثم لا يلبث حتى ينقطع تدفقهم هذا .

نفس العظمة والتوسع اللذين رأيناهما في مراكش نراهمـــا في بعض الممالك السودانية . ولكن مع وجود الفرق بين بقية انحاء المغرب وافريقيا السودانية ؛ فلقد عرفت مراكش مبادىء الوحدة العميقـــة من الناحية البشرية والجغرافية وليس ذلك بسبب الاطار الطبيعي من الجبال بل بسبب صلابة وشجاعة سكانهـا البرابرة ، وميلهم الشديد للاستقلال وهذا ما تدين له مراكش كونها استطاعت المقاومة والاستمرار . وعندما طردت مراكش الاسبان والبرتغاليين نشأ الحقد المسيحي كما نشأ مع الاتراك على الساحل الجزائري — التونسي . وهكذا فقـــد قطعت جميع الاتصالات واصبح البحر الابيض المتوسط هوة عميقة لا يقدر أحد على اجتيازها .

السودان

والآن ماذا كان يمثل يا ترى القسم الغربي من القارة السوداء في زمن المهاجرين العرب الاول، بل وماذا كانت عليه حضارة تلك المنطقة في هذا الوقت بالذات.؟
باستطاعتنا الحصول على بعض المعلومات حول هذه النقطة من الوصف الذي تركه لنا البكري *El Bekri* لمملكة غانا في القرن الحادي عشر .

ان كلمة غانا هي عبارة عن لقب كان يطلق على الحاكم هناك ثم اصبح يطلق على مقره ثم توسع فأصبح يطلق على كل البلاد . أما مكان العاصمة فلم يكن ثابتـاً دائماً ؛ اذ انها تغيرت عبر الاجيال . كما اكتشفت اطلال واسعة في اربعة او خمسة

اماكن بعيدة تقع في الجهة الغربية من اعالي مصب نهر النيجر . ولقد وصف لنـا البكري حيين من البيوت المبنية بالحجارة والخشب ؛ فـالحي الاول ويقطنه المسلمون الذين يتقنون فن التجارة والحي الثاني الذي يقطنه الملك وحاشيته قرب احد الاحراش المقدسة حيث تقام فيه الاحتفالات الدينية .

وكان ولي العهد هو ابن اخت الملك . أما هو فكان يتزين بالعقود والأساور وكان الذهب يظهر بكثرة في كل شيء يحيط به ، على اسلحته وخيوله وحتى على كلابه . وعندما يموت الملك يدفن في غرفة تحت الارض مع بعض الخدم والطعام الاحتياطي واسلحته وحتى زينته ويُغطى الجسم بكومة من الحجارة . كما ان الملك كان مطاعاً في مملكته التي يخيم عليها الهدوء والامان . بينما كان المسلمون يمارسون ديانتهم بحرية وكانوا يشغلون مراكز هامة الى جانب الملك ، اما الحي الذي يسكنون فيه فكان يحتوي على اثني عشر مسجداً . ويبدو ان البكري لم يصف لنا فيما وصف الا الصحراء والساحل . اما ما نعرفه عن البلاد التي تقع في الجنوب فيكاد لا يذكر . تلك البلاد التي كانت ممنوعة عن الخيل والجمـال بسبب رداءة مناخها ووجود ذبابة تسي – تسي . كما كانت ممنوعة عن الاجـانب من قبل ملكها الذي كان يخاف من ان تعرف مصادر ثروته الحقيقية . هذه البـلاد هي ما تعرف اليوم بمناطق (البامبوك والبوري) الغنيتين بالذهب .

لقد تأسست مملكة غانا في القرن الرابع بعد الميلاد من قبل جماعة من البيض على الأغلب ثم جاءت بعدهم عائلة حاكمة من السود في القرن الثامن . ولقـد سيطرت هذه الدولة على السودان الغربي بأكمله . ولكنها سقطت بعد قرن من الزمن تحت ضربات المرابطين بعد ان قاومتهم مدة خمس عشرة سنة ١٠٥١–١٠٧٦ . غير ان الحروب الداخلية اضعفت المرابطين في الجنوب بحيث زالت سلطتهم بينما وصل المرابطون في الشمال الى قمة مجدهم وعظمتهم .

ولقد دخلت بعض القبائل السوداء في الدين الاسلامي هرباً من ظلم المرابطين

فقط ، وهذه القبائل هي التي كانت تجاورهم وتحتك بهم مثل : الستوكولور ، الساراكولي ، الديولا وقسم من قبائل الماندينج . ولقد استطاع الدين الاسلامي بقوة السيف والسياسة معاً ان يصل الى صفوف الامراء بينما بقيت الكتل الشعبية محافظة في طقوسها القديمة .

ولقد ادى انتصار المرابطين ثم انخذالهم الى نتائج خطيرة :

فقد جمعت مملكة الساحل القديمة بعض الامارات التي ترتبط بها واستقلت نهائياً . وهناك مملكة سوداء ثانية وصلتنا شهرتها وهي مملكة مالي *mali* وتسمى (المملكة المالينكية او الماندنجية) . وتبقى أصول هذه المملكة مجهولة ولا تدخل في سياق التاريخ الا في اوائل القرن الثالث عشر في أيام سوندياتا ، وهذا الأمير الذي سمعنا بذكره من الملاحم القديمة استطاع عام ١٢٣٥ ان يملك القوة الكافية ليخرج بلاده من تحت وصاية سومانفورو ملك السوسّو . وفي عام ١٩٤٠ استطاع سوندياتا أن يدمر غانا وأن يثبت حكمه عليها . ثم انطلق يضاعف فتوحاته حتى تمكن من ان يبني لحسابه مملكة واسعة الأرجاء . وحتى من جاء بعده فقد توغلوا نحو الشرق فأخضعوا بذلك القسم الأعلى لمصب نهر النيجر .

وها هو ابن بطوطه الذي يصف لنا مملكة مالي التي زارها عام ١٣٥٢ بعد مضي وقت قصير من موت أميرها الشهير (كونغو موسى *Kongos moussa*) . ولقد قام موسى بأداء فريضة الحج عام ١٣٢٤ مع حاشية كبيرة فأدهش العرب بكرمه واحسانه . ثم جلب معه من هناك عدداً من رجال المسلمين المشهورين نذكر من بينهم السهلي *E. S. Saheli* وهو مهندس معماري وشاعر بنفس الوقت واليه ينسبون خطأً ادخال فن البناء الى السودان ، بحيث قام بتجديده لا بادخاله . ولقد اقام ملك مالي الذي كان يحكم من الغابات حتى الصحراء علاقات مع حكام مصر ومراكش . كما استدعى اليه بعض المتعلمين من العرب

وبعض تجار المغرب وهكذا وصلت شهرة مالي الى اوروبا . وفي القرن الخامس عشر بدأت تدخل مالي في دور الانهيار بسبب ضعف امرائها وظلم حكامها ؛ فاستولى التواريج على (تومبوكتو)[1] عام ١٤٣٥ ، وكذلك تخلص شعب (السونجي)[2] من سيطرة مالي بعد ان خضعوا لها زمناً طويلاً ، وكذلك قبائل الموسي *mousi* فقد بدأت تشن هجماتها حتى قطعت نهر النيجر . كل هذه الممالك هي دول على الأرض وهي تقوم في مناطق مجاورة للسواحل البحرية ومع ذلك فالعالم المتمدن يجهل كل شيء عنها .

اما الآن وفي هذه الحالة فلا نرى مانعاً يمنع العرب اسياد المغرب من ان ينزلوا حتى بلاد السنغال بل وأبعد من ذلك في عصر كانت منازلهم فيه تظهر على الساحل الشرقي الى ابعد من مدينة سوفالا *Sofala* . وهكذا يمكننا القول بأن القوافل كانت تكفي للتجارة عبر الصحراء . واذا ما نظرنا الى الخارطات الجغرافية التي تمثل أفريقيا قبل القرن الخامس عشر بدت لنا بشكل غير جلي بعض الذكريات عن تاريخ ممالك قديمة كموريتانيا وافريقيا ونوميديا وتازامون وحيبتوليا والغارامنت وطرابلس . أما في داخل القارة فلا نرى أثراً لهذا رغم ما يشتهر به من وجود محاومات عجيبة وخيالية .

لقد انتقلت السلطة بعد سقوط مالي الى قبائل السونجي الذين يقيمون في منطقة النيجر الوسطى متخذين من مدينة (جـاو) عاصمة لهم . ولقد كانوا يملكون الى جانب قوتهم العسكرية اسطولاً حربياً صغيراً . ولكن مملكتهم لم تمتد بعيداً الى الغرب على عكس مملكة مالي الا ان نفوذهم امتد نحو الجنوب حتى وصل الى (آغاديز *Agadès*) . كما ان اشهر حاكم ظهر بينهم هو آسكيا محمد الذي حكم من ١٤٩٣ — حتى ١٥٢٩ كما أدى فريضة الحج عام ١٤٩٥ يحيط به موكب عظيم ، كما صرف أثناء زيارته هذه مئة الف قطعة ذهبية للزكاة ولانشاء

---

(١) مدينة في افريقيا الغربية .　　(٢) قبائل من السودان الغربي .

مراكز الاحسان في المدينة المقدسة . ونذكر بـأن الخليفة العباسي آنذاك قد عينه لدى عودته الى بلاده كوكيل عام على كل افريقيا الغربية .

وفي أواخر القرن السادس عشر دخل حاكم جـاو في نزاع من أجل بعض مناجم الملح في الصحراء مع السلطان السعدي في مراكش وهي حجة أظهرهـا السلطان ، لأنه كان في الحقيقة يحسده على ثروات السودان التي تحت يده . ولقد أرسل السلطان فرقـة من الاسبان المرتدين بعد ان سلحهم ببنادق البارود ولم يلبث الحاكم الاسود حتى اندحر أمامهم فنهبوا مقاطعاته وانتهى الأمر بسيطرة السلطة المراكشية على مناطق النيجر الوسطى . بيد ان وقوع هذه البلاد في يد جماعة من المرتزقة جعلها تخضع لنوع من الاستغلال البشع وبقيت حالة البلاد كما هي عليه حتى عام ١٦٦٠ حيث انهار كل شيء . وعندها قامت جماعة من قبائل الماندينج التي لم تدخل الاسلام ويطلق عليهم اسم البامارا ويسكنون في منطقة (سيجو *Ségou*) فأعلنوا استقلالهم ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت قوتهم في المنطقة السودانية . والحقيقة ان تفوق البامارا الذي دام حتى منتصف القرن التاسع عشر لا يمكن مقـارنته لا من ناحية القوة ولا من ناحية الاتساع مع من سبقه . ولقد تقاسم هذا التفوق البامارا في سيجو والبامـارا في كارتا *Kaarta* ، بيد ان ذلك لم يمنع قبائل البول *Peul* في (ماسينا) من تأسيس مملكة مستقلة وان يضموا اليها منطقة (تومبوكتو) . وعلى العكس فان قبـائل البول الوثنية في منطقة (فوتا تورو) قد قُهروا في أواخر القرن الثامن عشر من قبل قبـائل (التوكولور) المسلمين والذين أسسوا بعـد ذلك دولة دينية على اساس ملكي انتخابي . ودامت هذه الدولة حتى انضمام هذه البلاد الى المستعمرة الفرنسية في السنغال . وفي منطقة (فوتاديالون) التي اصبحت بوتقة اسلامية نرى الحاج عمر الذي ظهر فيها عام / ١٨٥٠ / تقريباً وقد انشأ جيشاً قويـاً صعد به الى الشمال وفرض سلطته بسرعة على كل المنطقة السودانية وبقي كذلك الى ان استطاعت القوات الفرنسية ان تقهره .

وآخر فاتح سوداني نذكره هنا هو (ساموري توري) الذي يعود أصله الى غينيا العليا وهو آخر من اشتهر بصيد الرقيق في تلك المنطقة البائسة . وكانت جيوشه التي تتألف من متطوعين ومن أصحاب البلاد نفسها ، تبيع أسراهـا او تبادلهم مقابل الحصول على الاسلحة والذخائر في ليون وسيرا وليبريا . وبينما ساموري يندحر أمام القوات الفرنسية من السودان وأعالي غينيا كان ينهب كل البلاد حتى منطقة الفولتا السوداء ، الى ان اسره الفرنسيون عام ١٨٩٨ وبقيت ذكراه ماثلة في المناطق التي اجتاحها .

أما تاريخ السودان الأوسط فلا نعرف الا مـا ندر عنه وذلك لقلة المصادر الخطية ولعدم وجود تقاليد واضحة محلية ، كما ان عملية الدخول في الدين الاسلامي والتنقيب في البلاد الواقعة شرقي نهر النيجر يعودان الى زمن قريب وليس ببعيد . كما ان منطقة قبائل الهاوسا *Haoussa* تحدد مـا بين السونجي وغرب البورنو ، وتعمل هذه القبائل في الزراعة والتجارة وهم نشيطون جداً وقد اعتادوا على الأسفار الطويلة حتى أنهم كانوا يصلون الى أفريقيا الشمالية . وتحدثنا الرواية بأنه في أوائل القرن الحادي عشر ، يوم كانت تحكم مدينة (دورا *Daura*) العظيمة ملكة جاءت بعد تسعة حكام سبقوها، وتقول الرواية بأن البلاد قد تعرضت للخراب بسبب وحش هائل كان يمنع السكان من السعي وراء رزقهم، حتى جاء احد الرجال البيض مع من جاؤوا من جهة الشرق او الشمال وهو (ابن ملك بغداد) فتمكن من القضاء على ذلك الوحش وتزوج من الملكة وأنجب منها ستة أولاد انشأوا فيما بعد السبع مقاطعات الاولى لمملكة الهاوسا: ومنها (كانو *Kano*)[١] التي زارها (ليون الافريقي *Léon l'africain*)[٢] في القرن السادس . (وجوبير *Gober*) التي تشتهر بنسيجها القطني وبجلودها ... وكاتيسنا *Katsena* .... وكل هذه كانت حتى القرن الخامس عشر تابعة الى

---

١ — مدينة في السودان غرب نيجريا .
٢ — احد الجغرافيين العرب ولد في غرناطة ١٤٨٣—١٥٢٦ .

(كيبي *Kebbi*) التي تقع في الجنوب الغربي لمنطقة (سوكوتو) وحيث أن جميع سكانها يشكلون مزيجاً من السونجي والهاوسا . وفي عام ١٥١٥ نرى (ملك) الكيبي الذي كان متحالفاً مع السونجي يحتل آغاديز ، ثم لم يلبث حتى انفصل عن حليفه . وفي ذلك العصر تماماً توحدت دويلات الهاوسا لتتحرر ثم عاشت بعد ذلك في جو من التنافس فيما بينها ، أما الدين الاسلامي فقد بدأ يتسرب شيئاً فشيئاً بين صفوفهم . حيث نرى الأمراء ومعهم بعض أتباعهم يدخلون الدين الاسلامي منذ منتصف القرن الرابع عشر ، ولكن أحد المحاربين المتعصبين واحد أبناء شيوخ التوكولور ويدعى (عثمان دان فاتيو) من (فوتا تورو) هو المسئول عن دخول هذه البلاد في الدين الاسلامي . وقد استطاع عثمان هذا على رأس جيش من المرتزقة ان يهاجم الهاوسا أسياد اجداده ويهاجم رعاة (البول) في (غوبير) . واستطاع اخضاع كل البلاد من النيجر حتى البورنو . وحوالي عام ١٨١٥ توفي عثمان ، بيد ان من جاء بعده لم يكونوا قادرين على تسيير مملكة مترامية الأطراف ولهذا فقد انحدرت أمام القوات الانكليزية عام ١٩٠٤ عندما احتلت هذه القوات سوكوتو .

اما السهول الواقعة في شرق الهاوسا والتي تشكل منخفض بحيرة تشاد فقد كانت مأهولة بسكان من السود الذين امتزجوا بعناصر بربرية وعربية . وكانت تضم هذه المنطقة اقليمين جغرافيين ، الاولى وهي (كانم) في شرق البحيرة والثانية (بورنو) في الغرب . بيد اننا نجهل كل شيء عن هذه المنطقة حتى نهاية القرن الحادي عشر ، عندما قام أحد حكام (تيبوا) أو (تيدا) نسبة الى تيبستا ؛ ونشر سلطته على منطقة الكاوار وتيبستا والبورنو . وفي نهاية القرن الثاني عشر ازيحت العائلة المالكة بواسطة أحد رجال المسلمين من قبائل الكانمبو *Kanembou* الذي حمل لقب (مايي *moi*) . ولكن خليفته الذي جاء بعده لم يكن قادراً على الحكم ، ولذلك فقد ثارت عدة شعوب كان يحكمها وبدأ عهد من الاضطرابات الذي امتد زمناً طويلاً ؛ ومن الشعوب التي ثارت

نذكر قبيلة (الساو Sao) التي اشتهرت بصناعة الخزف حيث اكتشف مؤخراً من بين آثارهم التي تركوها . وفي عام ١٣٥٣ نرى ابن بطوطه الذي عــاد من تومبكتو الى توات touat) يحدثنا عن منطقة البورنو) التي تبعد مسير اربعين يوماً والتي يسكنها جمــاعة من المسلمين وعلى رأسهم ملك يسمى (ادريس) . ولقد وصلت مملكة البورنو الى أوجها في عهد ادريس الثالث في نهاية القرن السادس عشر ، وكل ذلك بفضل استخدام السلاح الناري الذي كان يجلبه الامير من طرابلس . ولقــد امتدت سلطته حتى شملت (كانوا وزندار والآير) بالاضافة الى كانيم وحتى بحيرة (فيتري Fitri) . كما سيطر على مجموعة البلاد التي يسكنها شعب (التيدا) . واما في الجنوب فقد وصل الى الماندارا (والكوتوكو) والموزكو . واننا لنقرأ في (طارق الفتّاش Tarik el fattach) مــا يلي : (هناك في العالم اربع سلاطين ما عدا طبعاً سلطان القسطنطينية العــالي ، وهم سلطان بغداد ، وسلطان القاهرة وسلطان بورنو ، وسلطان مالي » .

اما من جاء بعد ادريس الثالث فلم يقدروا على تدبير هذه المملكة الواسعة مما جعل بعض الشعوب تستعيد حرياتها وتعلن استقلالهــا كما كانت في الماضي والبعض الآخر ينضم تحت سلطة حكام آخرين .

وفي عام ١٨٠٨ نرى (عثمان دان فوديو) الذي احتل بلاد الهاوسّا يهاجم من جديد البورنو . كما ان احد رؤساء (الكانيم)[١] استطاع على رأس جيش من السود وعرب مقاطعة (شوا Choa)[٢] ان يدحر جيش (التوكولور Toucouleur) وان يحمل معه الى العاصمة المايي احمد Le mai Ahmed الذي هزمه . وبقيت السلطة الفعلية بيد هذا الزعيم المنتصر . وجاء بعده ولده الذي اصبح سلطاناً على البورنو عام ١٨٤٦ وهو الذي اسس العائلة الحاكمة الثــالثة .

---

(١) بلاد سودانية في افريقيا الاستوائية الفرنسية .

(٢) مقاطعة من بلاد الآبيسيني التي جاء اليها العرب من الجزيرة العربية .

ثم جاء بعده الى الحكم خليفته هاشم *Hachem* بيد انه لم يلبث حتى اندحر أمام قوة احد المغامرين الذي يدعى رباح عام ١٨٩٣ حيث قتله ؛ ولقـد قتل رباح ايضاً بعد فترة من الزمن في كوسيري *Kousseri* عند التقاء نهري الشاري واللوغنو من قبل فرقة عسكرية من الفرنسيين وبعد موت هاشم اعترف الانكليز بابن اخيه سلطاناً على البورنو تحت الحماية الانكليزية .

اما في جنوب (كانم) فنرى مملكة باجـيرمي *Baguirmi* التي تأسست في القرن السادس عشر ثم دخلت في الدين الاسلامي في القرن السابع عشر . وكل ما فعلته هذه المملكة هو انها مرت من تحت نير البورنو جارتها القوية الى نير (الأوادي *Ouadai*) اي انها بقيت تابعة لغيرها طوال حياتها .

كما ان التاريخ يحدثنا عن ملوك الأوادي المشهورين بقساوتهم وظلمهم . اما البلاد التي عرفت باسم الأوادي فهي تشمل البيرغو *Birgou* ودار صالـــح ، وكانت تسكنها بعض القبائل العربية الصافية وبعض قبائل السود. كما اندخول الأوادي في الدين الاسلامي يرجع الى القرن السابع عشر ، بفضل احد احفـاد الخلفاء العباسيين الذي جاء من مصر الى تلك البلاد . وكما هي حـــال الأوادي فكذلك هي حال دارفور جارتها الشرقية التي اصبحت تحت سيطرة (التونجور *Toundjour*) الذين ينتمون الى أصل سامي ولكنهم لم يدخلوا الدين الاسلامي. الا ان العائلة المالكة قد اقصيت عن الحـكم بواسطة احد رجـــال المسلمين الذي يدعى (سولون سليمان) . وفي منتصف القرن التـــاسع عشر احتلت القوات المصرية كوردوفان التي كانت تابعة لدافور وهي التي ضمت الى السودان المصري عام ١٨٧٤ . اما السودان الشرقي فكان مصرياً ولكن اسمياً فقط . ففي عـــام ١٨٧٠ — ١٨٧١ ، زار العالم النمسوي شوينفورث تلك المناطق فوجدها فيحالة يخيم عليها الدمار على ايدي تجار العبيــد ؛ حيث ان كل تاجر كان يحتل اقليماً معيناً خاصاً به ويحميه باقامة مراكز وقائية لرد هجمات المعتدين ولأسر كل من يقع في ايديهم من انسان وحيوان . حتى ان قوةهؤلاء التجار ازعجت الحكومة

المصرية . فاستدعت اقوى واحد فيهم وهو زبير باشا حيث قبضت عليه وسجنته . ورأى تجار دارفور بأن مثل هذا الاجراء يشكل انذاراً لهم ليمتنعوا عن تجارتهم . فقامت حركة ثورية في البلاد يقودها ابن زبير باشا الا انه اندحر وتفرق عسكره ، بيد ان ثورته كانت باعثاً لمغامرتين كبيرتين من بعده . وهما مغامرة رباح والمهدي .

فرباح هذا هو اخو زهير باشا بالرضاعة والمسؤول الاول لديه ولذلك فقد اعتصم في سجن الغزال ثم انتقل الى جنوب بحيرة تشاد ، وهناك تصدت له احدى الفرق الفرنسية وقضت عليه . وبهذا العمل تكون قد وضعت حداً للحوادث التي دامت مدة (٢٢) عاماً خيم خلالها الخراب والدمار على جميع انحاء السودان الأوسط .

اما المهدي خليفة رباح فقد كان سوداني الاصل مثل رباح تماماً وكان ينتمي الى عائلة نوبيه واسمه الحقيقي هو محمد احمد . وفي عام ١٨٨١ أعلن محمد احمد نفسه مهدياً بعد ان قضى على حاكم (فاشودا) في جبال كوردوفا . وفيما بين عام ١٨٨١ – ١٨٨٤ احتل المهدي بصورة متتالية كلاً من كوردوفان، ودارفور وبحر الغزال . وفي عام ١٨٨٥ دخل المهدي ام درمان ظافراً ثم احتل الخرطوم بعد ذلك وحكم بالموت على (غوردون باشا)[١] ، وتوصل المهدي الى السيطرة على ثمانية اعشار البلاد التي عُرفت بعد خمسة اعوام باسم السودان المصري . ولقد مات المهدي بعد وقت قصير وجاء بعده عبدالله الذي يعود اصله الى دارفور . ولقد جهز عبدالله جيشاً من ابناء البلاد وأرسله الى الآبيسيني، فاحتل (الكوندار) ونهبها عام ١٨٨٨ . كما نذكر بأنه بعد فترة قصيرة من هذا التأريخ وصلت حركة الدراويش الى نهايتها ايضاً . وفي عام ١٨٩٦ احتلت القوات الانكلو – مصرية دونكولا[٢] *Dongola* . وفي العاشر من تموز عام ١٨٩٨ دخل الجنرال

---

١ – هو شارل جورج انكليزي وكان حاكم السودان .
٢ – مدينة في منطقة اثيوبيا وهي عاصمة كوندار .

مارشاند منطقة فاشودا . كما استولى كيتشنر على ام درمان في نفس العـــام .
وفي سنة ١٨٩٩ هرب عبدالله الى كوردوفان وهناك هزمه الانكليز ثم قتلوه .

وباختصار فان الاسلام قد وصل الى قلب القارة السوداء عن طريقين: الأولى هي الطريق الغربية التي تبدأ من المغرب حتى تصل الى نهر النيجر .

وأما الطريق الثانية فتأتي من مصر بواسطة منطة اعالي النيـــل ابو بواسطة طرابلس . ومن هذين المنفذين المعروفين رأينا كيف ان مصر وقرطاجة وبيزنطة استطاعت ان تحمل حضارة البحر الابيض المتوسط الى قلب خليج غينيا . ولقد حافظت كلٌ من الموجتين الاسلاميتين على صفاتها الخاصة . فالموجة التي جاءت من الجهة الغربية وحملتها قبائل البول في القرن التاسع عشر الى بلاد الهاوسا وحتى بلاد الآداماوا ، هذه الموجة جـــاءت من اصول بربرية . كما ان الدين الاسلامي الذي كانت تحمله فانه يتبع في اسسه عقيـــدة المرابطين ، بحيث نرى تغييرات كثيرة قد طرأت عليه : فالحج الى بيت الله اصبح متعباً ومحفوفاً بالمخاطر كما ان احترام رجال الدين قد تضخم حتى اصبح نوعاً من العبـــادة لهم وللأمكنة التي وطأتها اقدامهم ، وكذلك فان قراءة القرآن قـــد اصبحت تستعمل للرقوات السحرية كما انتشرت عادة حمل التمائم التي تحوي بعض الآيات المكتوبة على قطع من الجلد . ولقد اعجبت التمائم المسلمين وغـير المسلمين ولم تلبث حتى اصبحت صناعة الشيخ او المعلم *Maalam* الذي يحضرها ثم يطهرها ويبيعها اخيراً .

أما الموجة الشرقية فقد كانت تبحث عن خلق اتصال مباشر مـع اليمن عن طريق مصر وطرابلس. ولقد ظهرت بشكل قوي بانضمام السنوسيين لها. ورغم انها انطلقت من الحركة الوهابية إلا انها بدأت من طرابلس ووصلت الى (كانم او عانم) والآوادي والبوكو حتى اندحر اتباعها امام آغـــادز *Agadès* عام ١٩١٧ من قبل القوات الفرنسية . امـــا المسلمون في السودان الغربي الذين لا يعرفون شيئاً عن الحركة الوهابية فقد نسوا الحركة السنوسية . وفي اي مكان

صل إليه احدى هاتين الموجتين نراهما مشتركتين في الاضطرابات التي تحدث في ذلك المكان ، وان تاريخ السودان الأوسط يشهد على ذلك في البورنو وكانيم والباجيرمي . وفي كل مكان نرى الدخول في الدين الاسلامي يطول ولكنه غير ثابت او مركز ، وكذلك فاللغة لم تلعب الا دوراً ضعيفاً كما ان التشريع القرآني لم يطبق أبداً على غير المسلمين ؛ وأخيراً فان عمليات اقتناص الرقيق التي امتدت من بحيرة تشاد الى النيل قد دمرت السودان الأوسط . أما الشيء الذي أخذته قبائل البول من العرب (وهذا نادر جداً) وكذلك السودان الغربي ؛ هذا الشيء هو الثياب العربية . حيث نرى الرداء الواسع والعمائم الفاخرة التي تتعارض تماماً مع عري غالبية الفلاحين السود ، كما ان هذه الملابس قد اصبحت فيما بعد تدل على الثراء والعلو الاجتماعي . والواقع انه حتى مجيء الاوروبيين لم تكن أفريقيا المسلمة قد اتحدت تماماً بالعالم الاسلامي . واننا نرى في هذه الايام النفوذ الاوروبي الذي رغم سيطرته هناك فقد سهل كثيراً الاتصالات بين افريقيا والشرق . وكذلك فقد أصبح الحج الى مكة المكرمة لا يشكل أي خطر بعد اليوم ، فالسيارة او الطائرة يقومان اليوم برحلة يحتاج الانسان لكي يقطعها الى عدة اسابيع .

واخيراً فقد دُعي الاسلام في أفريقيا السوداء الى اقامة علاقات ضيقة مع مصر وتركيا وإلى تطويره في نفس اتجاه هاتين الدولتين من الناحية الاجتماعية والدينية .

الفصل الثالث

ممالك افريقيا السوداء

ساحل غينيا

اذا ما سرنا على طول المنطقة الساحلية ابتداء من مصب نهر السنغال فاننا نصادف قبائل الأولوف *Ouolof* التي تقسم الى ثلاث ممالك صغيرة هي أوالو *o ualo* وجولوف *djolof* وكايور *Cayor* . وهي ممالك عُرفت دائماً بتنظيماتها الخاصة . ثم نصادف بعد ذلك مملكة قبائل السيرير *Sérères* الكبيرة في منطقة (السين *Sin*) التي عرفت دائماً الزراعة المزدهرة . وبعيداً الى الجنوب نصادف أيضاً في منطقة فوتا *fouta* الجبلية مزيجاً من قبائل السوسو والبول والتوكولور والساراكوللي والماندينج ، يؤلفون دولة الفولا *foula* وسكانها عبارة عن رعاة ومزارعين مسلمين يتكلمون لغة البول ، وحكومتهم دينية يمكن مقارنتها بدولة (فوتاتورو) ، حيث تذوق الدراسة والأدب محترم فيها غاية الاحترام .

واخيراً فاننا نصل في طريقنا الى مجموعات قبلية عديدة دخلت بينها عناصر من البول والماندنيج ، فأقصوا هذه المجموعات الى المناطق المستنقعة على الساحل

أو الى حوافي الجزر المليئة بالغابات . أما ما نعرفه عن ماضي هذه الجماعات فيكاد لا يذكر ، بل كل ما نعرفه هو أنهم كانوا بالنسبة لجيرانهم الأقوياء مستودعاً من الرقيق يباعون الى النخاسين فيأخذونهم عبر الاطلنطي حيث يعملون في المستعمرات الاسبانية القديمة وكذلك البرتغالية والانكليزية والفرنسية .

وعلى عكس ما رأينا ، فان جمهورية ليبريا قد أسسها جماعة قديمة من الرقيق المتحررين عام ١٨٤٧ . وقد جاء هؤلاء الرقيق من الولايات المتحدة الامريكية حيث تعلموا من هناك فن البناء والتعمير . أما سكان ليبريا الاصليين من سود ومُوَلَّدين من اصل أمريكي فانهم يشغلون المناطق المجاورة للعاصمة مونروفيا ، كما يمارسون اشرافاً محدوداً على بعض المناطق التي اعترف بها لهم في معاهدات مع فرنسا وانكلترا . أما جنوب ليبريا فهناك الغابة وما يحيط بها من مناطق تقطنها جماعات من السكان الذين وصل بعضهم الى مراكز سياسية مرموقة ، بينما نرى البعض الآخر وقد بقي في مستوى القرية او المقاطعة .

وهناك ايضاً قبائل الباولي *Baoulé* الذين يبلغ عددهم (٤٠٠) الف ينتشرون على الحدود الأولية لمنطقة المروج الواسعة التي تقطع كتلة الغابات في شاطيء العاج عند خط الطول في منطقة البواكي *Bouaké* . وتقول احدى الأساطير بأن هذه القبائل قد أتت من الشرق تحت زعامة ملكة قوية . بينما دخل جيرانهم الشرقيون (الآغني *Agni*) في وسط الغابة . ويتكلم هذان الشعبان (الآغني والباولي) لغة مشتركة ، كما ان حضارتهم تتقارب مع حضارة قبائل (آشانتي *Achanti*) في شاطيء الذهب .

ولقد ظهرت مملكة آشانتي مع عاصمتها كوماسي في اوائل القرن الثامن عشر . والذي نلاحظه هو ان ممالك الباولي والآغني والآشانتي تشتهر بصناعاتها الفنية الدقيقة ، بحيث نرى المتاحف اليوم تغص بالأمتعة والتماثيل الخشبية الصغيرة التي ترد من تلك البلاد ، وكذلك الاوزان الصغيرة التي تستخدم في وزن مسحوق

الذهب ، وأدوات الزينة الذهبية المتعددة الا ان اجلها هي التي تمثل الاقنعــة الصغيرة .

والى الشمال نرى بلاد الموسّي *Mossi* وهي عبارة عن مناطق يحيط بهـا نهر الفولتا الاسود والأبيض وتضم هذه البلاد مملكتين: الاولى وهي مملكة اوغادوغو *Ougadougou* والثانية مملكة يتانغا *Yatenga* ، بحيث يعود زمن تأسيسها الى الى اوائل القرن الحادي عشر . وكل مملكة منها تضم عدة مقاطعات خاصعة لها يديرها اقرباء الملك الذي يترك لهم كل الحريــة في الادارة ولا يطلب منهم الا دفع ضريبة سنوية معينة وبعض النجدات العسكرية في المنــاسبات . وبلاد الموسي بمملكتيها قد حافظت على مؤسساتها وعاداتها حتى جاء الاستعمار اليهـا وسبب محافظتها هذه هو أنهـا كانت تظهر عداءهـا الشديد لكل التأثيرات الخارجية وخاصة فيما يتعلق بالنفوذ الاسلامي .

ولقد بقي تاريخهـا غامضاً بعض الشيء ، وبينما نرى مملكة (أوغادوغو) بعيدة عن كل الحوادث التي مرت في السودان الغربي،نرى العكس بالنسبة لمملكة (ياتنغا) التي حشرت نفسها في الأحداث التي قررت مصير مملكتي مـاندينج والسونجي .

اما مملكة فادا — ن — غورما *Fada-N-gourma* المجاورة فقد تأسست على نفس الاسس : بحيث كانت مقسمة الى (١٨) ولاية واحدة منهـا كلها تعود الى الملك مباشرة . ولقد قاومت هذه المملكة زمناً طويلاً .

وفي الاقسام الشمالية والشرقية نشاهد كثيراً من الممرات التي تجتاز افريقيـا وتنفذ الى نهر النيجر او رافده (بينوي *Benoué*) حتى تصل الى أقصى خليج غينيا . وان كل ما كان يجلب من الخارج قد جاء عن طريق تلك المناطق حيث تبلغ فيها الحضارة الافريقية ذروتها .

أما مملكة داهومي التي ضمتها فرنسا اليها عام ١٨٩٤ ، فقد تأسست في اوائل القرن السابع عشر واتخذت مدينة (آبومي) عاصمة لها . ولقد عرف حكام هذه المملكة كيف يسهرون على مملكتهم ويديرون شئونها . ونرى عادات الدفن عند ملوك داهومي هي نفسها عند جيرانهم ملوك بينان *Bénin* ، كما تذكرنا في نفس الوقت بعادات حكام غانا .

وفيما بين داهومي ومصبات نهر النيجر نرى مقاطعة واسعة ومسطحة تحيطها المستنقعات ويسكنها أربع ملايين من السكان ، تضم قبائل اليوروبا *Yorouba* دخل قسم منها في الدين الاسلامي ، وقبائل البينان ، والنوبي *Noupé* والايبو *Ibo* . كما ان بعض هؤلاء السكان يدعون بأن اصلهم شرقي ، كما نجد بعض الآثار الغربية تظهر بشكل واضح ، كما يمكن ان تكون هناك عناصر دخلت بواسطة الاسلام .

ويبدو التنظيم في المدن واضحاً وجلياً ، فالحكومة تتبع نظام الطبقية المعقد كما توجد جمعيات بعضها سري وتمارس كلها نشاطاً بارزاً في الحقلين الديني والسياسي .

وفي أوائل القرن الخامس عشر تقريباً نرى قبائل البينان تأسس دولة قوية اشتهرت بفن صناعة البرونز الذي يبدو بأنها قد ورثتها من جيرانها الايفي *Ifé* ، كما اشتهرت بصناعة العاج ولها في هذا الميدان أعمال رائعة . ولقد انتشرت صناعة البرونز من الداهومي وشاطىء الذهب حتى جنوب الكاميرون وشملت بلاد هاموم *Hamoum* .

أفريقيا الكونغولية والجنوبية

تسير الحدود بين أفريقيا السودانية والكونغولية مع خط يمر قريباً من شمال

خط الاستواء ثم يتجه نحو الجنوب حتى يصـــل الى المحيط الهندي . واكثر أفريقيا الكونغولية مغطى بغابات كثيفة وتسير فيها بحار مائية عديدة صعبة الاجتياز في فصل الامطار . كما تظهر هذه البلاد أقل ملاءمة من المروج السودانية فيما يختص بالرحلات الطويلة والعلاقـــات التجارية والسياسية . ولقد ظهر منذ مجيء البحارة البرتغاليين الأُول في نهاية القرن الخامس عشر ، أن تلك المنطقة كانت تحوي عدة ممالك . كمملكة لوانغو *Loango* التي تقع بين (بور جانتيل) ومصب نهر الكونغو أو (الزايير *Zaïre*) كما كان يطلق عليه سابقـاً . وتشبه مملكة غانا او احدى ممالك المو"سي *Mossi* ، اذ تشكل دولة ذات سيادة ودول أخرى تابعة لها يسكنها أجداد قبائل (الفيوت *Fiot*) والبافـالي . وفي أواخر القرن الخامس عشر خضعت مملكة (لوانغو) كما يظهر لحـــاكم الكونغو او (الماني كونغو) *Mani-congo* الذي كانت تمتد سلطته من (سيتي كامـــا) في الشمال الى أعالي نهر (الزامبيز) في الجنوب الشرقي . ولقد بدأت هذه المملكة تضعف وتتجزأ ، كما ان ضعف أمرائها قد حث" أتباعهـــا من الممالك الصغيرة الأخرى على الانفصال عنها وطلب الاستقلال . وما أن جاء القرن التاسع عشر حتى أصبحت مملكة (الماني كونغو) لا تضم الا منطقة صغيرة جداً .

وفي الشرق من لوانغو والشمال الشرقي من الكونغو كانت توجد هناك مملكة آنسيكا *Ansika* ، التي تسكنها قبـائل (الباتيكي) (والبيا كا) . كما تمتد في جنوب مملكة الكونغو وعلى طول ساحـــل المحيط مملكة (ندوجو *Ndogo*) التي يحمل حا كمها لقب (نجولا *Ngola*) ومنه أخذ البرتغاليون اسم (انغولا *Angola*) . واننا لا نملك أية معلومات عن هذه المملكة قبل مجيء الاوروبيين اليها .

وعلى كل حال فالتحريات الجديدة عن الناحية البشرية والآثار القديمة تسمح لنا بالاعتقاد بأن داخل أفريقيا من انغولا الى قنال موزامبيك قد عرف حضارة واحدة تقريباً: فالتقاليد الاصلية غير واضحة تماماً ولكنها تفيدنا على الاقل بأنه خارج ممالك لوانغو والكونغو ، كانت هناك ممالك قوية ولها حكام من أصل واحد .

وعندما اجتاز البرتغاليون رأس الرجـــاء الصالح سمعوا عن وجود مملكة مونوموتابا *Monomotap* . التي كانت مسيطرة كما وصلتهم الأخبار عن المنطقة الواقعة بين نهر الزامبير، حتى منطقة الكاب .

إلا ان الواقـــع يثبت أن حدود تلك المملكة غير مستقرة حسب العصور والحكام . وبالفعل فقد قام البرتغـاليون باتصالات مع المونوموباتا بغية استثمار مناجم الذهب عندهم بيد ان محاولتهم لم تثمر شيئاً . تماماً كما حـاول سليمان من قبل استثمار ذهب أوفير *Ophir* التي توجد في روديسيا كما يقول البعض ، وأوفير هذه ذكرت في الكتاب المقدس .

كما ان الخرائب التي اكتشفت في هذه المنطقة وخاصة في (زمبابوي) قـــد أثارت حب الاستطلاع عند الكثيرين منذ اكتشافها عام ١٨٦٧ . وأهم مـــا في تلك الآثار المعبد الاهليلجي الذي بنيت جدرانه من الحجارة المحككة ، وحيث يبلغ عرضها ما بين اربعة أو خمسة أمتار ؛ ومن تلك الآثار برج يبلغ ارتفـــاعه اثني عشر متراً . كما ان الابحاث التي تمت باعتناء قد كشفت عن وجود قطـــع فخارية وخزفية كالتي توجد اليوم ، ومجموعة من اللآلىء الزجاجية ذات اللون الأزرق وبعض قطع من الخزف الصيني . وقد تم بناء هذا المعبـــد على ايدي السود بين القرن السادس والقرن الخامس عشر في مكان يقع قرب مناجم الذهب التي استثمرت منذ أمد طويل .

كما ان معدن الذهب قد جذب الى الساحل التجـــار العرب الذين كانوا يقدمون مقابل الذهب أدوات الزينة من فارس والهند وماليزيا . والحقيقة ان وجود الشبه بين الأبنية والأبراج في انغولا وبين أبنية وابراج روديسيا ، يؤكد وجود منطلق ثقافي واحد لمجموعة واحدة تمتد من انغولا الى موزامبيك .

كما ان داخل افريقيا الذي ينضم الى تلك المجموعة الثقافية قد تحمل كثيراً من التأثيرات الخارجية ، وقامت فيه عدة ممالك تضم السكان الاصليين . وقـــد

ازدهرت تلك الممالك لفترة طويلة من الزمن . ونذكر من الممالك التي تأتي بعد مونوموباتا ، مملكة (الباروسي *Barosté*) في منطقة نهر زامبيز الوسطى ، وكذلك مملكة لوندا *Lundâ* ، فوق هضاب كاساي وزامبيز المرتفعة ، ومملكة كاتانغا في المنطقة الجبلية عند منبع الكونغو . كما نجد في شمال غربي (تانغانيكا) مملكة الأورو *uru* او البالوبا، وهم اقرباء البالوندا *Balond* والمانياما *manyema* . ونرى ايضاً في شرقي البحيرة مملكة الأوتاموازي مع تابعاتها اورندي وروانداء، وأخيراً تأتي مملكة الأوغاندا وتابعتها مملكة اليونيوزرو *Unyoro* ، في شمال بحيرة فيكتوريا .

ان كل الممالك التي ذكرناها تخضع لمبدأ واحد من التنظيم وهو وجود مجلس وزراء يرأسه الملك . كما ان مملكة الكونغو كانت مقسمة الى أربع مقاطعات تقع في أربعة أماكن مرتفعة ويحكمها أربع أمراء هم اولاد اخت الملك الذين يحيطون بالحاكم . أما ام الملك واختها فقد كانتا تلعبان دوراً سياسياً هاماً . اذ كان لكل واحدة منهما عاصمتها وحاشيتها وحكومتها . أما الاميرات من الحاشية الملكية فكن يخترن زوجاً لوقت قصير بحيث يهجرنه عندما لا يعجبهن ، او يقتلنه في بعض الأحيان . أما الملك فكان اسمياً صاحب السلطة العليا .

ولقد عرف قسم من هذه الممالك بعض المنازعات في القرن التاسع عشر ؛ وكان سببها التزاحم بين الكاثوليك والبروتستانت . ونذكر هنا بأن مملكة اوغندا قد كانت ايام حكم نتيسا *Ntessa* الكاثوليكي مسرحاً لحروب دينية دامية، بحيث امتدت الى ايام حكم خليفته موانغا *Muanga* ولم تنته الا بعد أن اعتنق موانغا المذهب البروتستانتي . ولئن اختلفت الاسباب فالنتائج شبيهة بالتي خلفها الاسلام في افريقيا الشمالية والسودان الاوسط . اي تعددت الاسباب والموت واحد بالنسبة لافريقيا . وانه خلافاً لبعض الدلائل ، فان مقاييس تطور الممالك الأفريقية التي نجهل تقريباً تاريخها ونشوءها وتوسعها المفاجىء او انهيارها السريع ،

هذه المقاييس توجد واضحة في سياق الحوادث التي شهدتها افريقيا في القرن الماضي .

ففي النصف الاول للقرن التاسع عشر تأسست مملكة قوية ثم اخذت تتوسع بتحريض من احد الرجال وبالتجمع الإرادي او القسري للمجموعات الصغيرة التي كانت حتى ذلك الوقت تعيش منعزلة .

وحوالي عام ١٧٨٧ ولد طفل في قبائل الزولو واسمه (شـــاكا *Chaka*) . ونظراً لطفولته المعذبة فقد بحث عن ملجأ له عند أحد الزعماء المجاورين، وحدث ان تبناه ذلك الزعيم جاعلاً منه وريثاً له . وعندما استلم شاكا السلطة خلق بين رعاياه نظاماً عسكرياً مبنياً على اساس التنظيم الاجتماعي الذي كان سائداً ، اي بحسب القبيلة وترتيب العمر . ولقد قسّم جيشه الى فرق بحسب المناطق وجهزه بتدريب جديد . ثم بدأ يستولي على الشعوب المجاورة له بحيث كان يجبر المغلوبين على دخول جيشه وتعلم لغة الزولو . ونستطيع التقدير بأنــه حوالي عام ١٨٢٠ كان تحت امرة شاكا مئة الف محارب . ويحكم على اكثر من نصف مليون انسان .

ولقد كان اعوانه العسكريون المجربون يحيطون به ، كما انهم هم الذين قادوا الحملات التي تحمل الدمار والموت ضد قبائل التونغا *Thonga* والمازونا *Mashona* وبعض قبائل (النياسا *Nyassa*) وفي الجنوب الغربي من افريقيا . ولقد قتل في جميع هذه الحملات اكثر من مليون شخص تقريباً . ولكن الانكليز الذين تمركزوا في الناتال *Natal* وكذلك قبائل البوير في الترانسفال قد غضبوا كثيراً للأعمـــال التي قام بها (الزولو) ولذلك ارسلوا ضدهم حملات عديدة . وفي عـــام ١٨٧٩ اصبح الناتال مهدداً من جديد من قبل (كيتيوايو *Cittiwayo*) زعـــيم الزولو الجديد ؛ ولقد استطاع اخيراً ان ينتصر على قبائل الزولو ولكن بعد معركة قاسية جداً .

القسم الثاني

الفصل الأول

المجتمعات

ان تعيين الحدود للمناطق الحضارية في أفريقيا بشكل واضح هو عمل صعب لان الحوادث التي جئنا على ذكرها سابقاً — لا تجعل هذا الأمر سهلاً كما نتصور.

ففقدان الأمن وعمليات النهب والتدمير قد اجبرت بعض المجتمعات الصغيرة على الانطواء والانعزال بعيداً عن كل شيء . كما ان هناك مجتمعات أبيدت عن آخرها وان من بقي من احفادها ذاب في مجتمعات أخرى بحيث استطاعت ان تحتفظ ببعض تراث ماضيها البعيد . كما ان بعض المتخصصين بدراسة تاريخ الجماعات البشرية قد توصلوا الى وجود بعض العناصر الحضارية .

هذا كما ان طريقة الحياة في المجتمع والتكوين الاقتصادي يعودان في جزء كبير منها الى وضع المنطقة من الناحية الجغرافية والى توزيع النباتات والحيوانات الاهلية ، كما ان خارطة المناطق الطبيعية ضرورية بعض الشيء ان لم تكن كافية تماماً لفهم توزيع الجماعات البشرية . ومن الواضح أن البدو الرحل اصحاب الجمال يستطيعون وحدهم المقاومة في جو الصحراء خارج الواحات ، بيد ان الغابة تبقى دائماً محظورة على الماشية التي تسير الحياة المادية كلها وكذلك

الحياة الاجتماعية عند سكان أفريقيا الشرقية .

١ — هناك صحراء كالاهاري *Kalahári* التي يسكنها البوشيمان الذين هم آخر من يمثل اليوم أقدم سلالة من البشر عرفتها أفريقيا. كما ان شروطاً حياتية قاسية قد فرضت هناك على شعب قديم لا يجد مورده الاساسي الا في الجري وراء الطريدة التي يعتبر وجودها نادراً .

٢ — وهناك قبائل (الهوتانتوس) التي ربما جاءت من اجتماع قبائل البوشيمان مع بعض السود ؛ وهذه القبائل تنتقل من مرعى الى آخر في جميع انحاء الجنوب الغربي من افريقيا . أما متاعهم فسهل ولا يكلفهم كبير عناء ؛ فهناك الثيران التي تستعمل للحمل وقُرب الماء التي تصنع من معدة الحيوان وكذلك الكوخ الذي يبنى من الأغصان والذي لا يكلف نقله صعوبة . أما اعمالهم الفنية التي تتعلق بالصيد وحاجاته فانها تذكرنا باعمال البوشيمان .

٣ — هناك مميزات بشرية وسلالية تتوافق بحيث تجعلنا نرى عند قبائل الأقزام الذين يعيشون في الغابة الاستوائية كسلالة مُميزة ، حضارة بارزة ، بحيث تبقى عملية الصيد وما تحتاجه من اختصاص الرجال وحدهم أما اعمال اللقاط والجمع فهي من اختصاص النساء .

٤ — أما أفريقيا الشرقية فهي مركز مهم لكبار مربي الماشية والقطعان ايضاً . كما ان الاهتمام بتربية المواشي يسيطر على جميع مرافق الحياة المادية والاجتماعية والدينية. أما الأعمال الزراعية ، فهي ، ان وجدت ، تقوم على اكتاف بعض السكان القدماء الذين جاؤوا الى هذه البلاد ثم تحولوا الى رقيق فيها . وفيما يتعلق باللغات المنتشرة هناك فاننا نراها تخص مجموعتين من السكان : النيانزا وهي مجموعة من السكان الفيليبين في شمال بحيرة فيكتوريا ، والبانتو وهي المجموعة الثانية في الجنوب .

٥ — أما في المناطق الافريقية التي تمتد في جنوب نهر زامبيز فان تربية الماشية

تزداد شيئاً فشيئاً اكثر من الزراعة وحيث النساء يلعبن دوراً كبيراً، بينما نرى الرجال يذهبون للعمل في المناجم والمراكز الصناعية التي تقع خارج حدودهم بينما نرى السكان الاصليين منعزلين عن كل ذلك . أما الزراعة فيمارسونها بواسطة المجرفة *La houe* ، وان أهم المحاصيل الزراعية هي الذرة البيضاء والذرة الصفراء والقرع .

٦ — إن السود الذين يسكنون الغابة الاستوائية هم ايضاً من المزارعين ولكنهم لا يعرفون جمع محاصيلهم في اوقات محددة بسبب المناخ عندهم. وكذلك فهم يلجأون الى قلع بعض ادران النباتات من الأرض وقت الحاجة ، وهكذا فان الأرض هي مستودع لهم يخرجون من باطنها غذاءهم متى شاؤوا ذلك . أما الماشية فغير موجودة لأن ذبابة تسي — تسي تمنع وجودها هناك ؛ واما منازلهم فهي مصنوعة من قشور النباتات وكذلك ثيابهم فقد كانت تصنع قديماً من تلك القشور . هذا وان مصادر الثروة عندهم في الغابة مستثمرة الى آخر حد بيد ان تزايد النباتات الكثير قد يكون في بعض الأحيان عاملاً من عوامل الاختناق .

٧ — تضم منطقة أفريقيا الغربية الواسعة سكاناً من غابة غينيا وهم جماعة محافظة وتؤمن بقوانينها الخاصة . كما تضم تلك المنطقة قبائل سودانية مسلحة ، بالاضافة الى بعض السود الذين يعيشون شبه عراة ولهم تنظيمهم السياسي الذي لا يتعدى حدود النظرة العائلية . كما تضم ايضاً احفاد زعماء السودان البارزين وبعض الممالك الغينية *Cuinéenne* . والذي يطبع كل الجماعات التي ذكرناها هو الارتباط بالارض التي تقدم لهم الخيرات ويحمل هذا الارتباط طابعاً دينياً ، كما نجد ايضاً عبادة الاجداد في جميع انحاء هذه المنطقة . وهكذا فالارتباط الديني بالأرض وعبادة الأجداد يطبعان هذه البلاد بطابع حضاري واحد .

٨ — هناك الصحراء ايضاً موطن مربي الجمال ، حيث الشروط الطبيعية تفرض عليهم نوعاً واحداً من الحياة . كما انه من الناحية البشرية أو اللغوية أو

السلالية لا نستطيع ان نميز بين قبائل التواريج وبين قبائل (التيدا) في تيبستي *Tibesti* ، ولا بين قبائل (المورس) في التاجانت وبين عرب الواحات .

٩ — ويبقى السودان الشرقي الذي دخلته مدنيات سامية واسلامية والذي يسكنه اليوم رعاة يملكون الثيران والاغنام والماعز والخيول وكذلك الجمل في بعض الأحيان . كما ان قبائل (الكبابيش *Kababish*) تمثل مرحلة انتقالية بين مدنية الصحراء الحقيقية وبين مدنية مربي المواشي النيليين *Nilotiques* .

١٠ — واخيراً تأتي افريقيا الشمالية التي يسكنها بعض الحاميين *Kamites* وكذلك الليبيون او البرابرة .

ولقد دخلت تلك البلاد مدنيات فينيقية ومصرية ويونانية ورومانية وعربية وانتشرت فيها بصورة متتابعة او مزدوجة في بعض الاحيان . ولقد رأينا كيف ان عدة عناصر حضارية في افريقيا الشمالية استطاعت ان تتوغل في افريقيا عبر الصحراء الى السودان والى داخل خليج غينيا .

١ — البوشيمان *Les Bochimans*

اذا كان البوشيمان لا يمثلون السكان الاصليين فهم على الاقل اقدم جماعة ظهرت في افريقيا الجنوبية ، فمنذ عدة قرون خلت كانوا يشغلون المنطقة التي تقع جنوب نهر الزامبيز ، ولكن احفادهم الذين جاؤوا بعدهم قد تراجعوا وأصبحوا اليوم يتنقلون في صحراء كالاهاري فقط ، حيث لا يوجد هناك سهل خصب ولا مروج تجذب اليها المزارعين .

وان هذا الشعب الذي لوحق في كل مكان قد رأى الطريدة تختفي من حوله بحيث قضت عليها الاسلحة النارية بعد ان كانت تشكل غذاءه الاساسي . ولا يزيد عدد البوشيمان على (٧٥٠٠) فرد وان اكثرهم قد لجأ الى السهول المستنقعية

المليئة بالبحيرات المائية في الجنوب الغربي من افريقيا ومن انغولا . أما البعض الآخر فقد دخل بلاد انغولا من الجنوب . ورغم تأثير جيرانهم من قبائل الهوتانتوس وبعض السود، فلا يزال هناك بعض آثار من مدنية البوشيان الصحيحة، تلك المدنية التي تتميز برسومها المنقوشة على جوانب الملاجيء الصخرية بواسطة فحم الخشب أو التراب الأحمر (المغره) أو دهن الحيوان الممزوج بالماء. وتصور هذه الرسوم بعض مشاهد الصيد وبعض مشاهد الرقص التي ترمي الى سحر الطريدة بحيث نرى بعض الراقصين يقلدون حركاتها . كما نرى في بعض الأحيان لوحات تمثل القتال بين البوشيان والسود، وكذلك تؤكد بعض الرسوم القديمة وجود الحيوانات مثل الحمار الوحشي والجاموس والفيل والوعل وكل واحد من هؤلاء له منطقة خاصة وموسم خاص لصيده .

هذا وان ملاحقة الطريدة والبحث عن مواضع المياه النادرة يقضيان بوجود حياة دائمة الترحال والتنقل، وأينما وجدوا يقيمون اكواخهم المصنوعة من قشور الأشجار والمغطاة بأغصانها . فلا زراعة لديهم ولا تربية مواشي، وان الكلب هو الحيوان الاهلي الوحيد . الا ان وسائل الصيد وصناعتها كانت متقدمة للغاية. ومن الرسوم الصخرية رسم يمثل صياداً مسلحاً بقوس ولابساً جلد النعامة بحيث يتمكن من ان يقترب من الحيوانات وهذه الحيلة لا تزال موجودة عند بعض الشعوب الافريقية . اما القوس الذي يصنعه البوشيان فيتميز بالقصر كما ان خشبه على شكل مقطع دائري اما الوتر فيصنع من خيوط عضلات الحيوانات . وبما انه لا يوجد من يعمل بالحدادة، فقد كان الصيادون مضطرين لجلب الرؤوس الحديدية الصغيرة من جيرانهم والتي يضعونها في طرف قناة من القصب بحيث يمكن انتزاعها بسهولة . وفي حالة عدم وجود الحديد فانهم يستخدمون رؤوساً من الحجارة او العظام . اما السهام فهي مسممة بواسطة مزيج من (الفربيون *Euphorbe*) او لبن السوداء ومن سم الافعى ومن الرتيلاء المطحونة وعندما تجرح الطريدة ولا تسقط يضطر الرجل الى اللحاق بها كي ينتزع من جرحها الرأس الحديدي الثمين ويضعه في قناة أخرى . وأخيراً فالبوشيان لا يستعملون الفخاخ التي يستعملها

بقية السود في افريقيا .

لقد دخل الصيد حياتهم كلها اذ لا شاغل لهم الا هو فقط . ولذلك فـالصبي منهم قبل ان يبلغ سن الرشد عليه ان يستعد لتحمل بعض الجروح في ظهره وذراعيه ، ثم تفرك تلك الجروح باللحم المحروق ، وبهذه العملية يكتسب الفتى قوة ورشاقة الطريدة في حالة تحمله لها (أي لهـذه العملية) . ثم يقومون بفتح بعض الجروح بين عينيه لكي يصبح نظره نافذاً وقوياً .

كما نذكر هنا بأن النساء المكلفات بأعمـال اللقاط والجمع من الأرض قد ازدادت مسؤولياتهن اثر النقصان الشديد للطرائد ، أما الآلات التي تستخدمها النساء فهي تنحصر في آلة على شكل عصـا طويلة مثقلة بحلقة من الحجر وذات طرف مدبب صلب وأحيـاناً يوضع فيه قرن حيوان . كما تقوم النساء بجمع أدران النباتات من الأرض وجمع الأفـاعي ودود الخشب والجراد والديدان الأرضية . أما الأدوات الفخارية او الخزفية فغير موجودة ، ولذلك فهم يمتصون الماء بواسطة قصبة توضع في فوهتها بعض الأعشاب لتصفي ميـاه المستنقات ، وبعد عملية الامتصاص يوضع الماء في بيض النعـامة او في قرب جلدية صغيرة . أما ملابسهم فهي عبـارة عن جلد حيوان يضعونه حول خواصرهم ويمر من بين الساقين مع جلد آخر يغطي الكتفين . وامـا الحلي التي يستعملونها فثمينة وهي عبارة عن حلقات مصقولة من قشر بيض النعام ومترابطة بدقة على شكل تاج او اكليل . كما نجد من الحلي الخرز والحلقات النحاسية التي يحصلون عليهـا من جيرانهم السود . ونضيف الى ذلك أصداف السلاحف الصغيرة او قرون الوعل التي تحتوي على مرهم له قيمة سحرية ، لأن الحـلي هي نوع من الطلسم قبل كل شيء .

ويقسم البوشيمان الى وحدات سياسية واجتماعية وكل وحدة يقودهـا أمهر واحد فيها ، ويبلغ عدد أفرادها / ٥٠ / رجلا ونادراً مـا تكون اكثر ، وذلك

لتستطيع هذه الوحدة ان تنقسم بسرعة في حالة ملاحقة الطريدة . أمـــا في الشمال فنجد الى جـــانب الزعيم المنتخب للصيد ، زعيماً آخر كخليفة له يوجه المجموعة كلها . وكذلك فحدود المنطقة التي يمكن للقبيلة الواحدة ان تصطاد فيها وان ترتوي من مياهها وتجمع انتاج نباتاتهـا ، هذه الحدود تكون معينة بواسطة شجرة مثلاً او حفرة ماء او بخط من الكثبان الرملية . ونذكر هنا بأن اكثر الاصطدامات التي تقع بين القبائل ، سببها خرق تلك الحدود . أما المجموعـــة الثابتة والتي لا تتغير فهي العائلة التي تتكون من الزوج والزوجة والاولاد الصغار. بيد أننا نجهل تحديد القرابة ودرجاتها عند البوشيان . فالرجـــال كما يبدو هم بصورة عامة أقرباء الزعيم ، وكذلك فالمرأة مجبرة على الاقـــامة بقرب زوجها . وفي قبيلة (نارون *Naron*) نرى الرجل يقضي السنة الاولى من زواجـــه عند عائلة زوجته وتفسير ذلك هو أنه بامكان والدة الزوجة (الحمـــاة) ان تعتني بالمولود الجديد . وأخيراً نقول بأن قساوة المناخ وظروف العيش بالاضـــافة الى اختفاء الطرائد من المنطقة قد أجبر احفاد البوشيان على اتباع نظام نباتي معرض للزوال . والى جانب هذا فقد انتشرت بينهم عادة قتل الأطفال .

ان كل مـــا ذكرناه مضاف اليه عدم استعدادهم لتبني حياة جديدة اخرى ، يجعل البوشيان مهددين بانقراض قريب .

٢ — الهوتانتوس *Les Hottentots*

تظهر القرابة بين الهوتانتوس والبوشيان في السلالة واللغة اكثر منهـــا في الحضارة المادية . ونستطيع ان نقسم الهوتانتوس بحسب اللغة الى أربع مجموعات رئيسية : الناما ، الكورانا ، والغونا *Gona* ، والهوتانتوس القدمـــاء في الكاب الذين اختفت معالمهم اليوم ، اذ اندمج احفادهم بالاوروبيين والهندوكيين وشكلوا قبائل الغريكا *Griquà* والباستاردز *Bastards* في (رهبوت *Rehoboth*) .

وقبائل الهوتانتوس بصورة عامة رعـــاة يتبعون ماشيتهم من مرعى الى آخر

بيد أن النساء هي التي تحلب الماشية وهذا مـــا لا يتصوره مربو الحيوانات في افريقيا الشرقية . أما الثيران فتستعمل للركوب أيضاً . ويبدو ان المـاشية التي كانوا يربونها هي من النوع الكبير القامة وذات ظهر مستقيم وقرونها طويلة بحيث نجد بعضها اليوم في أفريقيا الشرقية . ولكن اختلاط تلك الحيوانات بالتي حملها معهم المزارعون الهولنديون قد غير شكلها القديم. أما غذاء الهوتانتوس فيتكون من الحليب الذي يشرب رائباً بالاضافة الى بعض الحبوب وجذور النباتات . أمـــا اللحم فلا يأكلونه الا في أيام الأعياد فقط . كما ان الماشية تنام في حظائر محاطة بسياج من الشوك وتقع وسط منـــازلهم . الا ان أكواخهم أرقى من أكواخ البوشيمان اذ تتـألف من أغصان كبيرة منحنية تشترك النساء بتغطيتها بنوع من الحصر المجدولة ، وأما أرضها فتطلى بروث البقر وبالدم .

ولقد كان تنظيمهم الاجتماعي الذي اختفى اليوم ، معقداً اكـــثر من تنظيم البوشيمان بيد أنه أقل تعقيداً من تنظيم شعوب أفريقيا الشرقية . فقد كان لكل قبيلة زعيماً ومنطقة محددة ، ومواضع ميـاه معينة . كما تضم القبيلة عدة عشائر (باتريلينير *Patrilinéaire*) وعشائر تزوج أفرادهـا من عشائر اخرى ، بحيث كل عشيرة تحمل اسم الجد الاول لهـا . كما ان الحكم الطبقي الصارم المبني حسب الأعمار هو الذي يوجه العلاقات الاجتماعية داخل العشيرة ، أما القبيلة كلها فلهـا زعيم واحد ، هو زعيم اقدم عشيرة فيها .

ويؤمن الهوتانتوس بتعدد الزوجات، وان المرأة تعيش عادة بين عائلة زوجها من ناحية أبيه . وينحصر عملهـــا بالاشراف على بيتها وبتحضير الحليب الذي حلبته . كما ان عادة ادخال الأولاد والبنات في العائلة كان يطبق بصورة افرادية، الا أن عملية ادخال الاولاد فقط قد فقدت كثيراً من اهميتها منذ فقدان الطرائد الكبيرة ، ومن عاداتهم أن تبقى البنت معزولة فترة من الزمن ، أما الطقوس التي تتعلق بسن البلوغ فانها تتم عنـــد حدوث النمو في الاعضاء الجنسية الخارجية ، وعندما تدخل الفتاة الحياة الاجتماعية تراها تبدأ بممارسة أعمـــالها اليومية تحت

اشراف امرأة متقدمة في السن فتدربها على جمع الأخشاب وقطف بعض الحبوب، كما تمسك بذراعها طيلة مدة حلب الماشية ، ثم تقوم أخيراً برشها بالماء وفركها بالوحل ، والماء هنا ذو قيمة تطهيرية كبيرة .

وعند حدوث الوفاة يلف الجسد بالجلود ثم تدفن الجثة وهي في حالة الجلوس ووجهها الى الشرق . أما كوخ الميت فلا يدخله أحد بعد ذلك كما تغادر العشيرة مكان اقامتها . ثم يفرضون على الارمل او الارملة ان تمتنع فترة من الزمن عن الاقتراب من الماشية وعن لمس أوعية الحليب وعن أكل اللحوم النيئة وعن شرب الماء البارد ، كما أن لمسها يوسخ الماشية ، وهكذا ينتهي زمن الحداد بهذه العملية ، وعند انتهائه يختتم بعملية تطهير تتبعها وليمة كبيرة يستطيع بعدها ذلك الأرمل او الارملة الاندماج بالحياة اليومية المعتادة. ونذكر بأن طبيعة البلاد القاسية وعدم وجود الماء الكافي للماشية في سهول أفريقيا المليئة بالسبخات ، حمل قبائل الهوتانتوس على الاهتمام بمثل هذه الأمور ، وهكذا فقد اصبح على الطبيب — الساحر *medecin-magicien* أن لا يغتسل بالماء أبداً لأن قوته ستزول بزوال الأوساخ عن جسده . كما أن بعض الحكايات — الساحرات يمكن لقواهن ان تزول بتغطيس أجسادهن في الماء البارد .

ونرى عند قبيلة (الناما *Nama*) كيف يجتمع كل أفرادها أثناء الاحتفال السنوي بالامطار . ثم يضحون بعد ذلك بالأغنام السمينة في سبيل الخصب وازدياد الأمطار . وفي بعض القبائل الأخرى نرى البنات البالغات يركضن عاريات تماماً عند أول العاصفة وتحت المطر الذي يغسل أجسادهن ويؤمن لهن أطفالاً كثيرين في المستقبل .

لقد عرف الهوتانتوس إلهاً سماوياً واحداً هو (تزوي غواب *Tsui Goäb*) ، الذي يسير العاصفة والأمطار الغزيرة . كما أن صفات السلف الأول للهوتانتوس تنسب الى شخص عظيم تتحدث عنه الاساطير الدينية ويدعى (هيتسي أبيب)

Heitsi Eibibé ، الذي تعرفه قبـائل البوشيمان أيضاً وتعتبره الروح التي تسيطر على المروج وتحمي الصيادين . وقد كانوا يقدمون باسمه الضحايا بقرب اكوام من الحجارة تنتشر في جميع البلاد التي يسكنونهـــا والتي ترمز الى قبره ، اي انه مدفون في كل مكان، والآن ورغم وجود الشبه الكبير بين البوشيمان والهوتانتوس فانه لا مجال للالتباس بينهما .

لقد كان الهوتانتوس يتنقلون من مكان الى آخر بحثـــاً عن المرعى ؛ كما ان الانتفاع من المنتوجات الحيوانية كان يطبـع حياتهم المادية ، مـــع العلم بأنهم لا يقتلون الحيوان ابداً الا في حالات تقديم الضحيـة . وتشترك الماشية ايضاً في جميع احداثهم الهامة ، فنرى مثلا أن بعض الافراد الذين جرى ابعادهم لفترة معينة عن الجماعة ، كالشباب اثناء فترة الحـداد ، هؤلاء لا يمكن ان يقتربوا من الجماعة لأنهم سيدنسون انفسهم قبل كل شيء ويدنسون بالتالي الماشية والجماعـة بأكملها .

٣ – الاقزام – *Pygmées*

خلافاً لما نعرفه عن البوشيمان فان الاقزام في الغابة الاستوائية يعيشون على اتصال ضيق مع جيرانهم السود الذين يقدمون لهم اللحوم ويأخذون مقابلها الموز وزيت الاراشيد *Arachides* ... الخ . كما نجد أن كل جمـاعة من الاقزام يحميها زعيم اسود ، وينتقل عبء الحماية من بعده الى ولده .

كما نرى الاقزام يقلدون جيرانهم المجاورين لهم بحيث يحصلون على اشيـــاء كثيرة منهم الى جانب التنظيمات الاجتماعية والختان أيضاً . ومن هنا يصعب علينا عزل مدنية الاقزام بحيث لا نرى منها عناصر صافية ابداً . اما لغتهم فهي لغة اسيادهم السود كما ان البعض منهم قد استطاع ان يحافظ على لغة خاصة به الا انها لا تحمل ميزات واضحة . ويمكننا تقسيم قبائل الاقزام الى ثلاث مجموعات:

١ – الأقزام الشرقيون او البامبوتي *Bambouti* (اي رجال الغابة) وهم الآكا ، الايفي *Ejé* والبازوا *Basu* .

٢ – اقزام المنطقة الوسطى وهم جماعة الباكوا *Bacwa* ، ويسكنون منطقة الانهار التي ترفد ضفة نهر الكونغو اليسرى،وجماعة البابينغا *Babinga* التي تسكن منطقة الاوبانجي والسانغا *Sanga* .

٣ – الاقزام الغربيون ويسكنون منطقة الغابون *gabon* وهم جماعة الآكوا *Akoa* ، والبابونجو *Babongo* والبيكوي *Bekwi* . وقسم آخر يسكن منطقة الكاميرون وهم الباكا ، والباجيللي .

ويبلغ عدد الاقزام كلهم مع من امتزج بهم /١٢٠/ ألفاً تقريباً . غير انهم مبعثرين في مجاهل الغابة الافريقية ، بين بحيرة البرت والمحيط الاطلنطي . كما لا توجد أية جماعة منهم تعيش في المروج ولا يظهر بأن احداً من الاقزام قد عاش هناك . والميزة الظاهرة عندهم هي تعلقهم الشديد بمناطقهم السكنية وهذا التعلق يجعلنا ننظر اليهم كما يقول الاستاذ (شيبستا *Schebesta*) كأطفال المناطق الانقلابية . كما نرى الغابة تحدد طريقة حياة هؤلاء الرجال الصغار . فالزوابع والعواصف نادرة فيها ، بيد ان هطول الامطار يستمر معظم ايام السنة وكذلك الرطوبة فهي ثقيلة جداً . فعند الصباح يُرى ضباب كثيف يرتفع من الارض المغمورة بالمياه بينما تبقى الآجام مبللة . غير ان الاقزام لا يخرجون من مخابئهم ابداً اذ انهم يتجنبون اوراق الاشجار المبللة ولذلك نراهم ينتظرون شروق الشمس لينتشروا بعد ذلك بحثاً عن قوتهم اليومي .

أما مراكز سكنهم فهي عبارة عن حلقات من الاكواخ المبنية على شكل نصف دائري فوق جذور الاشجار الضخمة . وبناء تلك الاكواخ من اختصاص النساء ويتألف الكوخ من مجموعة من الاغصان على شكل قوس ، ثم تغطى جوانبه بالاوراق العريضة ، والباب هو الفتحة الوحيدة في الكوخ . هذا ويستعمل

الاقزام بعض الاحيان المغارة او الكنف كملجأ لهم وقت المناسبات المصيبة .

ونرى رجال الاقزام مغرمين جداً بالصيد ، فالقوس عنـــدهم على شكل مقطع دائري ويصنع من غصن ليس له قشر محنيّ بواسطة النار . وأمـــا الوتر فيصنع من شجر (نخل الهند *Rotui*) ثم يُثبت في طرفيه حلقتان من الخشب ، وكذلك السهم فهو يحمل ورقة ملفوفة على شكل ريشة الطائر ؛ كما كانت السهام، قبل حصولهم على رؤوس الحراب الجديدة ، تصنع من الخشب الرفيع القــاسي بحيث كانوا يعرضونه مدة فوق النار ، وهذه السهام تحمل في رؤوسها نوعــاً من السم كانوا يحصلون عليه من بعض النباتات المعرشة . أما طقوس الصيد فـكانت تستدعي مشاركة النساء حيث يرقصن طوال الليل الذي يسبق صيد أحد الفيلة .

كما تظهر عودة الصيادين المنتصرين بالاحتفال الجميل الذي يقام لهم حـــاملاً طابع الحماس ولا ينتهي الرقص او الغناء الا عندما يصاب الراقصون والمغنون بالاعياء . والظاهرة البارزة عند الاقزام هي احتقارهم للفخاخ ، بل يهجمون على الفيل بالحراب ويركزون هجومهم على قوائمه الخلفية لقطع اوتارها . وما ان يقع على الارض حتى يقطعوا خرطومه محدثين بذلك نزيفــاً مميتاً . وفي بعض الاحيان يخاف الصيادون من ان تطأهم قوائم الطريدة الكبيرة ولذلك نراهــم يقتربون منها ويطلقون حرابهم المسننة في بطنها حتى تنقطع من تلقــاء نفسها عن كل مقاومة او حركة .

كما أنهم يمارسون الصيد الجماعي بواسطة الشبكة التي يبلغ طولها عشرة امتار تقريباً وارتفاعها متر واحد ؛ وتوضع هذه الشبكــة حول بعض الشجيرات على شكل نصف — دائرة ، وبعد تركيزها يبدأون باطلاق الصيحات وبتحريــك اغصان الشجر ليدفعوا الطريـــدة نحو الشبكة ؛ والوعول الصغيرة التي تقع فيها يقبض عليها حية اما الكبيرة فتقتل في الحال .

وفي كل صباح تنطلق النساء الى الغابة يدفعن بأولادهن امــامهن وبأيديهن

اوتاد طويلة تستعمل في نزع أدران النبـــاتات من الأرض ، كما يحملن السكاكين لقطع سوق النبات وتقشير الساق الطرية منهـا . وعدا عن ذلك فيجمعن ايضاً الحلزون والسراطين ودود الاخشاب ودود القز والافـــاعي . ثم يوضع المحصول في قفة تحملها كل واحدة فوق ظهرها بحيث تربط بحبل يمر فوق الجبين . كما تقوم النساء ايضاً بجمع عسل النحـل من الارض وذلك بحفر ثقوب تصل الى مستوى اقراص الشهد . اما الرجال فهم الذين يقومون بجمع عسل النحل من علىالاشجار وذلك باطلاق الدخان على الخلايا .

وانه بمجرد قتل الطريدة والانتهاء منها يترك الاقزام مكان اقامتهم ليقيموا بعيداً ، ولكن دون ان يتخطوا حدود مناطقهم الواسعـة والتي يعرف كل فرد منهم حدودها التي تعين بواسطة نهر او جدول او خندق كبير .
وشيء آخر هو ان الطريدة المقتولة تخص اعضاء العشيرة التي تملك الارضالتي قتلت فيها ، أما الصياد الغريب الذي يحاول احتلال تلك الطريدة فانـه يطرد بلا شك .

والاقزام مثل البوشيان يعترفون بالملكية الخاصة التي تنشأ عن عمـــل الفرد ومن استخدام الادوات الفردية . وهذه الادوات بسيطة للغاية وتصنع مـــن القشور والخشب وبعض النباتات المعرشة . وهي في نفس الوقت حاجات يسهل تجديدها ونقلها من مكان الى آخر . فهناك العصا الطويلة لحفر الارض والصفائح لتغليف اللحم الذي يستوي تحت الاحجار الساخنـة ، وصفائح اخرى مطوية على شكل بوق بحيث يسهل نقل الديدان فيها . أما سرير النوم فهو عبارة عـن مجموعة من الاوراق او خشبة كبيرة .

وعندما تأتي ساعة الرحيل يأخذ الرجل سلاحه ثم ينادي كلبه وهو الحيوان الاهلي الوحيد ، أما المرأة فتحمل قفتها ثم ينطلق الجميع على الطريقة الهندية — الواحد وراء الآخر .

وكل ما يملكون من أدوات حديدية وخزفية يحصلون عليها من جيرانهم السود لقاء تقديم الطرائد لهم .

وفي حالة عدم وجود قطعة الحديد التي تستعمل في اشعال النـــار (*Ferà* *Briquet*) ، يلجأ الاقزام الى طريقـــة قديمة يعرفونها كي يحصلوا على النار . وتتلخص هذه الطريقة بركوع احد الرجال على الارض ثم يمسك بين رجليـــه عوداً من الخشب الطري توجد فيه عدة ثقوب ، كما يأخذ بين راحتيه مثقباً من الخشب القاسي بحيث يوضع طرفه بصورة عمودية في احد ثقوب العود الطري ، ثم يبدأ بفرك المثقب بسرعة من طرفه الآخر. فلا تلبث نشارة الخشب المتوهجة ان تسقط فوق ليف جاف او بعض القطن الذي يشتعل فوراً . ثم يبدأون في الحال بنفخ قطعة الليف او القطن كي تلتهب النار .

وفيما يتعلق بالحلي وزينة الجسد ، فالاقزام دون سواهم لا يعرفون من ذلك شيئاً . أما ثياب المرأة فهي عبارة عن مجموعتين من الاوراق تربطان حول وسط المرأة ، واحدة من الأمام والثانية من الخلف . بينما يحمل الرجل جلد حيوان او مجموعة من قشور الأشجار الطويلة المدقوقة ، حول خصره بحيث تمر من بين ساقيه .

اما التنظيم الاجتماعي فغير معروف تماماً . فجماعة الرجال الذين يجـاورون بعضهم ويمارسون الصيد سوية فهم أقرباء ويعترفون بسلطة من هو اكبر منهـم سناً . أما المجموعة التي لا تتغير فهي العـائلة التي تضم الزوج والزوجة والأولاد الصغار فقط . كما ان اقدم طريقة للزواج كانت تقوم على اساس المبـادلة (رأس برأس) فالخطيب مثلاً يعطي اخته او احدى قريباته الى جماعة خطيبته ، واذا كانت احدى الفتيات التي وقع عليها التبادل عقيماً فلزوجها الحق بطلب واحدة اخرى . وهذا يفسر بأن تعدد الزوجات لم يكن منتشراً كثيراً .

وقد يحدث ان يأخذ احد السود امرأة من الاقزام بحيث يقدم الى عائلتها

تعويضاً عنها . وقد اخذ هذا النوع من شراء الزوجات بالانتشار . اما الزواج من الخارج *Fxogamie* فهو إلزامي في العائلة الواحدة وليس في العشيرة كلها . كما لا نجد هناك ايضاً أي ترابط بين العشائر وليس للسلطة القبلية اي أثر .

ويبدو من الصعب علينا ان نُبرزَ المعالم الدينية عند الاقزام وذلك لكثرة ما دخل عليهم من طقوس وعناصر دينية غريبة من جيرانهم الذين يحيطون بهم ، غير ان بعثة مدرسة (*P. Schmidt*) تؤكد وجود عبادة الإله الواحد.

ثم أليست قبائل البامبوتي *Bambuti* ، هي التي تقدم اول ما يُستخرج من الطريدة وكذلك الفاكهة إلى الإله الذي يطلقون عليه اسم الاب *Père* او الجد *Grand-père* ???

هذا الإلههو سيد الغابات والطرائد وهو ايضاًسيد السماء الذي يسيرالعواصف. بيد اننا لا نعرف مدى الاهمية التي يعلقها عليه الاقزام ولا كيف يصنفونه مع بقية الارواح الاخرى .

أما التقاليد التي تخص السحر ، فهي ايضاً لا يمكن تمييزهـا عن تلك التي توجد عند جيرانهم الزنوج . كاشعال النار لطرد العاصفة ورمي الأوراق فيهـا لتبعث دخاناً كثيفاً . وكذلك تثبيت القطعـة الخشبية التي شحذَ بها الوعل قرونه في القوس . ووضع بعض الاغصان الصغيرة التي لمستها الصاعقة فوق الكوخ لابعاد الصاعقة عنه .

أما الطقوس التي تتعلق بالموتى فهي تظهر بتقـديم الأطعمة لهم ، وكذلك الطقوس التي يطلبون فيها العون من اجدادهم قبل بدء عملية الصيد ؛ كل هـذا موجود عند الاقزام .

وأخيراً وفي كثير من مجتمعات المزارعين ومربي الماشية من الزنوج ، فان

وجود طقوس الصيد ، وادخال الأولاد الغرباء ، والعودة الى حيـــاة قاسية في الغابة حيث الثياب ممنوعة ، وحيث ينام الشباب عراة على الأرض يأكلون بعض الأحيان الطريدة نيئة ؛ كل هذا يمكن ان يكون آخر شاهد على طريقة في الحياة كانت قديماً واسعة الانتشار .

٤ – أفريقيا الشرقية *Afrique Orientale*

ان سكان أفريقيا الشرقية من أعـــالي النيل الى نهر الزامبيز ، ينتمون الى سلالات متعددة ويتكلمون لغات مختلفة . هؤلاء السكان لا يشكلون بيئـــة حضارية واحدة وهي البيئة التي تنحصر جغرافياً في منطقة البحيرات .

ان منطقة الداخل البعيدة ، وحدها ذات مناخ استوائي ؛ أمـا باقي أجزاء البلاد فهي تخضع لرياح موسمية أو دائمة تأتي من المحيط الهندي . كما ان كل منطقة تتلقى كمية من الأمطار تتناسب مع مستوى ارتفاعها عن سطح البحر . بيد انها تشترك كلها بفصلين جافين .

وتضم هذه البلاد البراري والمروج والأحراج حيث تكثر فيهـــا الحيوانات الكبيرة آكلة الأعشاب ؛ كما تظهر هذه البلاد أصلح بقعة لتربية المواشي من قبل المغرمين بها . والحقيقة فان الاهتمام بتربية المـاشية يطبع كل افريقيا الشرقية . فجميع سكانها تقريباً يكرهون الزراعـــة ، مع ان نساءهم يمارسنها ، ولكنهم يمارسون الصيد كهواية فقط . أما طبقة الحدادين فهي محترمة أحياناً واحيانـاً محتقرة الا أنها تبقى دائماً غير مختلطة بغيرها ويبقى الاعتناء بالماشية من اختصاص الرجال فقط . فالمالك يعرف كل دابة من قطيعه وتراه يقضي الساعات الطويلة في تدليك ظهورها ومداعبة قرونها او في عمل الاطواق لهـا او في التغني بمحاسنها منشداً لها المدائح الطويلة .

وعندما تموت إحداها يحزن صاحبها عليها حزناً عميقـــاً ؛ وهناك حوادث انتحارية سببها فقدان احدى الماشية ، أما الحليب فيشربونه صافياً او ممزوجـاً

ببول الماشية ، وأحياناً يشربون الدم الذي يخرج من جرح في رقبة الحيوان بواسطة سهم يطلق عليه عن قرب . الا أنهم لا يقتلون الماشية الا في حالات تقديم الضحايا فقط . حتى ان مجرد فكرة قتل الحيوان في الحالات الضرورية ، لأكله مثلاً ، تقابل برفض ورعب شديدين .

وان كل غذاء نباتي يُنظر اليه نظرة فيها شيء من النجاسة ، كما يجب أن يكون تناوله مسبوقاً ومتبوعاً بالصيام لفترة معينة لأن اختلاط الاغذية النباتية مع الحليب في بطن الانسان يحمل الشؤم له وبالتالي للماشية .

وكذلك يُجمع الحليب من قبل الرجال في أوعية خشبية او في نبات القرع، ولا يجمع أبداً في أوعية معدنية . كما تُغسل اوعية الحليب ببول البقرة ثم تُسوَّد كل يوم فوق نار من روث البقر ايضاً . أما السمن فيُحَضَّر من قبل النساء ، وهو يستعمل لدهن الجلد فقط .

ونرى أكثر الرجال عراة تماماً وكذلك البنات أيضاً أما النساء فيحملن ثوباً من الجلد غالباً ما يكون مطرزاً باللآلىء وبكمية اخرى من الحلي المصنوعة من النحاس الأصفر توضع في اذرعهن وآذانهن وخاصة حول رقابهن حتى تصل الى ما تحت الصدر .

ومساكن هؤلاء الاقوام ذات جدران من التراب ومغطاة بالقش وشكلها دائري . وفي جهة الشمال عند القبائل النيلية مثل الشيلوك والنوير والدنكا ، نرى التنظيمات الاجتماعية تختلف من قبيلة الى اخرى . فقبيلة الدنكا مثلاً التي يبلغ عدد أفرادها اكثر من / ٥٠٠ / الف نراها منقسمة الى عشائر بحسب درجة القرابة . وأيضاً الشيلوك ، الذين يبلغ عددهم / ١٠٠ / الف تقريباً يشكلون وطناً واحداً يحكمه ملك واحد ، ويقسم هذا الوطن الى ست مقاطعات . وان زعيم العشيرة في الدنكا ، وحاكم الشيلوك يعتبران من (الملوك المقدسين) *Rois divins* . اذ كل واحد منهما هو في نفس الوقت كاهن ومشرع وقاضٍ .

وكلاهما ، كما يعتقد أتباعهما ، يستطيع ان يهيمن على العناصر الطبيعية ، فهو يراقب الأمطار ، واذن فباستطاعته ان يجنب البلاد خطر الجفاف الذي اذا ما امتد زمنه فسيقضي على المراعي .

كما تتجسد في ملك الشيلوك *Shilluk* روح بطلها ومؤسسها (نيكانج *Nyikang*) الذي اختفى في إحدى العواصف . وان المنظر الذي يلفت النظر في احتفالات التنصيب يتلخص بوضع تمثال (نيكانج) برهة من الزمن على السدة التي كانت تخصه والتي يجلس عليها الآن ملك جديد غيره .

وملك (الشيلوك) لا يمكن ان يكون مريضاً ، لانه مع نيكانج ستكون صحة البلاد في خطر ايضاً . ولهذا كانوا يخنقون الملك عندما تظهر عليه أول علامة من علامات الضعف . أما مجتمعات منطقة البحيرات الكبرى وهي : ماساي *Massaï* والسوك *Suk* ، والتوركانا ، فانها تملك تنظيماً متطوراً من حيث الأعمار ؛ فالأولاد الذين يُختنون في نفس الزمن ينتمون الى مرتبة واحدة ، والحد الأقصى هو السبع سنوات . ثم يقام بعد ذلك احتفال لانتقالهم من مرتبتهم الى مرتبة اعلى . أما أول مرتبتين فتخصان المحاربين ، كما ان الشباب يعيشون على انفراد في حظيرة منعزلة حيث تأتي الفتيات العازبات كي يلتحقن بهم .

ولا يُسمح بالزواج الا بعد المرور في المرتبة الثالثة اي حوالي الثلاثين سنة . وفيما يتعلق بالتكوين الاجتماعي نرى مرتبة السن تشكل عاملاً مهماً في العمليات الحربية ، وهذا ما يفسر لنا غالباً الهيبة التي تفرضها هجمات قبائل الماساي والتي كانت تُنظم لغزو المواشي ، كما نرى عدداً كبيراً من تقاليدهم قد انتقلت الى قبائل الزنوج الأخرى في أفريقيا الشرقية .

ومن المؤكد بأن تلك التنظيمات (الرعائية *Pastorale*) النصف ـ عسكرية والتي يحتل فيها الشباب دوراً رئيسياً ، هذه التنظيمات تفسر لنا كيف ان هذه

الشعوب لم تحاول تأسيس دولة مماثلة لتلك الممالك المجاورة لها كالاينيورو *Lnyoro* والاوراندي .

هذا نوع واحد من الحضارة تظهر لنا من الأوغاندا حتى جنوب نهر زاميز . ففي كل مكان نرى غزاة من أصل حـامي يفرضون وجودهم على السكان الأصليين الزنوج ، الذين يمتهنون الزراعة والحرف، ولكن دون ان يختلطوا بهم . ونرى كذلك وجود مجتمعات طبقية حيث ان الأرقاء المزارعين (الباهـــارا) لا يستطيعون ان يمتلكوا الثيران بل يمتلكون الماعز فقط . وعليهم ان يقدموا الموز والذرة والبيرة الى أسيادهم (البـاهيما *Bahıma*) ، الذين يختصون وحدهم بتربية الماشية . كما لا توجد اتفاقات فيما يتعلق بأعمـال الأرض . فالفلاح الذي يستقر على أرض احد الأسياد ، يدفع لذلك السيد قسماً من المحصول لقاء حقه في الزراعة ، والفلاح حر في ترك الأرض متى شاء . وطرق الزراعة عند (الباهيرا) هي نفسها التي توجد في كل مكان في أفريقيـــا . فالزوج يعزق الأرض والنساء تمشيها ، أمـــا اعمال البذار والحصاد فهي مشتركة . كما تجمع الحبوب في سلال كبيرة مركزة بين أعمدة من الخشب او توضع في أبنية صغيرة خاصة مركزة على اوتاد كبيرة . وأما مساكن الفلاحين فتُبنى في وسط أعمالهم الزراعية . وتلعب الماشية دوراً كبيراً في هذه المنطقة اذ تشكل العنصر الأساسي في التعويض الذي يقدمه الزوج الى عائلة زوجته لتثبيت اجتماعها وتأكيد شرعيــة الأطفال . ومن هذا يظهر لنا بأن تعدد الزوجات يحدد بعدد رؤوس الماشية التي يستطيع الزوج تقديمها ، ونرى العكس ايضاً ، اذ انه في حـالة فقدان الثروة عند احدهم يؤدي عند الحاجة الى اقتسام زوجة واحدة من قبل أخوين اثنين . ونتيجة لذلك فقد أصبحوا يحتفلون بولادة البنت أكثر من الولد لأنها ستجلب لوالدهـا في المستقبل عدداً من رؤوس الماشية ، أي عندما تتزوج .

اما رئيس العشيرة فلا يراقب حدود منطقته بل يراقب اعداد الماشية الكبيرة ؛ اذ ليست الحدود الا لحسم النزاع الذي يحصل على احد المراعي الخصبة مثلاً ، او

لتمييز قطعان الماشية في كل منطقة من المناطق .

ونذكر بأن امراء (البانيورو *Banyoro*) كانوا يوضعون سابقاً وهم في الثامنة او التاسعة من عمرهم ، الى جانب من رعاة البقر الخبيرين كي يعلموهم كل ما يختص بالتربية وطرق الاعتناء بالماشية .

والملك عند البانيورو ذو سلطة مطلقة ، ونرى من حوله اقرباءه الذين يقومون مقام الوزراء وحكام المقاطعات . وبما ان نظام الوراثة مفقود تقريباً ، نرى ان موت الملك يفتح عهداً من الفوضى في الحكم ؛ ولا ينتهي الامر الا بعد معارك طويلة بين اولاد الملك الراحل ؛ ومن ينتصر منهم يصبح ملكاً ، اما من ينكسر فيسجن او يعدم .

وكذلك الملكة فهي اخت الملك من ابيه لا من امه . والى جانبها توجد الملكة – الام التي تشغل مكاناً هاماً ، وهي الى جانب هذا موضع احترام عميق . ولكل من الملكة او الملكة – الام مقر خاص تسكنه وأعمال ادارية تمارسها . وكذلك الملك نفسه فهو محترم كأي شيء مقدس ؛ حيث نرى بعض القرارات التي تجعله مفصولاً عن الرجال البسطاء الذين يشكل احتكاكه بهم خطراً عليه . كما توقد في بلاط الملك نار من روث البقر لا تنطفىء ؛ وترمز هذه النار الى حياة الملك ؛ كما ان المحارب الذي يفرك جسده بها تزداد قوته . وعندما يموت الملك تطفأ النار القديمة وتضرم نار جديدة ثم تقسم الى أجزاء صغيرة توزع على اتباع الدولة الكبار ؛ فاذا قبلت فذلك اعتراف بالسيد الذي ارسلها .

وفي هذه المنطقة كما في الشمال يحكم على الملك بالموت عندما تظهر عليه آثار الضعف او المرض ؛ ثم يغسل جسده بالحليب ويلف في جلد (حيوان)[1]. وقديماً

---

١ – يجب ان يكون الحيوان ضحية ، وليس غير ذلك .

كانوا يدفنون مع الملك بعض نسائه وهن على قيد الحياة مع عدد من الخدم بعد ان يكسروا اطرافهم . ويُدفن الملك في حرش مقدس ، وبعد عملية الدفن يخرج رجال الدين من الغابة ومعهم اسد صغير ؛ والأسد هو الحيوان الذي يخص العشيرة المالكة ، وان الملك سيصبح أسداً بعد موته .

والأمر البارز هو أن الماشية تسيطر على كل نواحي الحياة الاقتصادية والمادية والعملية والدينية . فالولادات وادخال الرجال في الجماعة والزواج والوراثة ، كلها تترجم عملياً الى عدد من المواشي التي تنتقل من ملكية رجل الى آخر . وفي كل مكان نرى للحليب وللدم وللعشب الذي يغذي الماشية ، قيمة رمزية الى جانب قيمتها المادية . وكما نرى ايضاً الشباب في كل مكان لا يحلمون الا بغزو الماشية او بوضع اليد على مراع جديدة . وحتى في الطقوس القضائية نرى الماشية تتدخل فيها . فالمتّهم من قبائل الماساي *Massai* مثلاً يشرب قليلاً من دم احد الثيران ؛ ولكن قبل ان يشربه ، يقول : « اذا كذبتُ فليخنقني هذا الدم . » .

وعندما يموت احد الرجال الطاعنين في السن او احد الاعيان، يذبحون احد الثيران ثم يدهنون جسم الميت بدهنه ويكفنونه بجلده ، اما اللحم فيؤكل في وليمة الدفن. وان اكبر شخصية في المجتمع هو الذي يتحكم بالامطار ويهيمن عليها ألا وهو المنجم *Devin* او العرّاف[1] الذي يكشف عن المستقبل ايضاً ويفسر الأحلام وبفضل نصائحه تلد النساء ، كما لا تقوم أية حملة عسكرية الى بعد ان يبدي رأيه فيها الذي هو الرأي الأخير .

لقد كان ساحل افريقيا الشرقي مسرحاً لموجة من التأثيرات الأسيوية التي لم تنقطع ابداً . ومن أي مكان جاءت تلك الموجة ، من الجزيرة العربية أم بلاد

١ ـ قد يكون المنجم ملكاً او ساحراً او غير ذلك .

فارس أم الهند أم اندونوسيا فاننا نلمس وجودها وخاصة بين سكان الساحل . كما نلاحظ أيضاً وجود عناصر حضارية آسيوية قديمة تمركزت في داخل القـــارة الافريقية في المجتمعات الزراعية التي لا يزال اهلهـا يحافظون على نقاوة سلالتهم الافريقية .

ومن ناحية دراسة الانسان الطبيعية نرى ان سكان الساحل والجزر التي تمتد عليه مع عدد كبير من زعماء القبائل وعائلاتهم في الدخل قـــد امتزجوا بالدم الأسيوي. كما نجد السواحليين[1] *Des Swahili* ، الذين يُعتبرون احدى السلالات الفرعية في جنوب افريقيا ، يدعي هؤلاء بأن اجدادهم جـاؤوا من بلاد فارس في القرن الثامن بعد الميلاد ، حيث تزوجوا بنساء البلاد . ونرى في لغتهم كثيراً من الكلمـات العربية ، كما تنتشر لغتهـم هذه في جميع انحاء افريقيا الشرقيـــة الانكليزية أي في كينيا والكونغو الشرقي ، وتمتد الى الجنوب حتى موزامبيق .

ولقد دخل الاسلام من الخليج الفارسي في القرن الثامن . وفي القرن الحـادي عشر جاء رجال من شيراز في بـلاد فارس وأنشأوا مينـــاء كيلوا *Klioua* ومومباسا . كما شقت الحضارة الفارسية العربية *Perso-Arabipue* بواسطتهـــم على البلاد التي تقع ما بين موغـــاديشو *mogadichou* في الشمال (وسوفالا) في الجنوب . وكان التجار العرب يعيشون على تجـــارة الذهب من مملكة مونوموتابا *Monomotaya* بالقرب من سوفالا ، وكذلك وبصورة خاصة على تجارة الرقيق المشردين في تلك المناطق الواسعة . وكانت قوافل الرقيق المعذبة تتجه بصفوفها الطويلة نحو الساحل ، ويُرسل من بقي منهم حيـاً من هناك الى مدغشقر وآسيا الجنوبية وحتى أندنوسيا .

وكان هناك طريقان كبيران للقوافـل يجتازان السهول الفسيحة . ويبـــدأ الطريق الاول من دار السلام حتى بحـــيرة ظانغانكا ، وأما الثانية فتبدأ من

---

١ ـ كلمة عربية معناها سكان الساحل وتطلق على مجموعة معينة من السكان .

مومباسا حتى بحيرة فيكتوريا؛ ونرى الخط الحديدي اليوم يتبع هاتين الطريقين.

ولقد ترك العرب على الساحل الشرقي اطلالاً من الحجارة المنحوتة والمسلحة بالكلس كما تركوا ألواحاً حجرية طويلة توضع على القبور والتي لا تزال محفوظة حتى يومنا هذا .

وحملوا معهم الى هذه المنطقة مهنة النجارة وزراعة البرتقال والليمون والقطن وقصب السكر . وفي القرن الثالث عشر فان عرب مسقط الذين ادخلوا زراعة القرنفل الى زنجبار كانوا يُعرفون بلبس الحلي الفضية الثقيلة والتي نشروا بواسطتها مهنة الصياغة .

وكذلك تقويم الأعياد والمظهر الديني فقط هما عربيان ايضاً ، واخيراً اللباس العربي الذي انتشر بين اهل المدن وهو عبارة عن قميص طويل أبيض وقلنسوه وثوب خارجي غامق اللون ، وقبقاب خشبي مرتفع تلبسه النساء .

وكذلك سكان ماليزيا الذين جاؤوا من مناطق بعيدة قد حملوا معهم الى الساحل الافريقي شجر جوز الهند وكل الادوات التي تصنع منه ، كالملاعق والمَبَاشِر ، وكذلك القوارب الصغيرة ذات الموجّه الخشبي .

وكذلك البرتغاليون الذين ظهروا في القرن السادس عشر بحثاً عن طريق الهند . فقد عرف السود بواسطتهم النباتات الامريكية كالذرة والمانيوك *Manioc* ، والفلفاس . ولقد اظهر البيض جشعهم لجمع الرقيق كي ينقلوهم الى مزارع العالم الجديد . ولئن كان الرقيق، الذين انتزعهم البيض عنوة من بلادهم، قد حُرموا من الارث المادي ، الا انهم تركوا لاحفادهم احاسيسهم الخاصة وبعض التقاليد التي انحرفت قليلاً بسبب احتكاكها بما جاءها من الخارج .

وفيما عدا مدن الساحل ، فيظهر الطابع الافريقي على حقيقته . فعمل الارض يتمّ بواسطة الجرفة التي تستعملها النساء كما هي العادة في أفريقيا . وعبادة

الأجداد قد بقيت الى جانب طقوس التملك *Possession* وطقوس التعزيم لطرد الأرواح الشريرة *exorciame* ، التي نجدها حتى في مدغشقر وحيث النساء يلعبن دوراً رئيسياً في ذلك .

والى الجنوب من الخط الذي ينطلق من مصب نهر النهر النيجر ويسير موازياً لخط الاستواء ، نرى هذه المنطقة من افريقيا مـــأهولة بالميلانو — افريقيين *Mélano-africains* الذين ينتسبون اليها سلالات فرعية *Sous-races* كونغولية ومن بلاد جنوب افريقيا، وتتكلم كل هذه الشعوب لغات (البانتو *Bantou*)[1].

ونستطيع بحسب الظروف الجغرافية والوقائع الحضارية ان نقسم قبـــائل البانتو الى :

١ — البانتو الشرقيين الذين اندمجوا بالسلالة الحامية . ويصل بعض هؤلاء الى شمال بحيرة فيكتوريا[2] .

٢ — البـــانتو الجنوبيين ، ويقطنون جنوب نهر الزامبيز (والكونين *Cunène*) .

٣ — البانتو الغربيين أو سكان الكونغو .

٥ — أفريقيا الجنوبية *Afrique Australe*

تشكل المنطقة الأفريقية جنوب نهر الزامبيز هضبة واسعة تحذو بسهولة من

---

١ — وهي اللغات التي تكون زيادة الكلمة Ba تعني جمع الكلمات التي هي من مرتبة الـ (نتو *Ntu*) ومعناها (رجل أو انساني) وهكذا يكون معنى كلمة *Bantu* رجـال او مجموعة انسانية .

٢ — هذا الرأي غير متفق عليه تماماً ولا يزال موضع جدل .

الشرق الى الغرب ويتراوح ارتفاعها الوسطي بين /١٢٠٠/ م و /٩٠٠/ م .

وتقطع هذه الهضبة وديان الانهار الكبيرة الثلاثة : الزامبيز ولمبوبو *Limpopo* والاورانج . ومع هذه الوديان الثلاثة تقوم ثلاث مناطق مرتفعة يزيد ارتفاعها على /١٢٠٠/ م وهي : منطقة جنوب روديسيا بين نهر الزامبيز واللمبوبو . والثانية تمتد في جنوب غربي اللمبوبو وأخيراً الأراضي المرتفعة داخل منطقة والبس باي *Walvis Bay* .

ويخترق نهر الزامبيز من الغرب الى الشرق منطقة كبيرة من القارة الأفريقية غير ان الساحل الغربي لا يتلقى كثيراً من الانهار لأنها على نفس المستوى ، واهم نهر فيها هو الكونين *Cunène* . وأما في الجنوب فنرى العكس ، لأن نهر الأورانج الذي ينبع من هضاب (باسيتو *Basuto*) ، يجري نحو الغرب ؛ الا ان الأورانج هذا غير منتظم فهو غزير احياناً وضعيف احياناً اخرى ، وهكذا فالساحل الشرقي الذي يوجد على ارتفاع واحد معه ، يروى جيداً بعدة مجار مائية لها بعض اهميتها .

ومن ناحية اخرى نرى فقدان التعادل بسبب الرياح ؛ التي تهب بصورة منتظمة من الجنوب الغربي طوال العام ، حاملة معها الامطار في الصيف (من كانون اول الى شباط) وتمتص هذه الرياح اثناء مرورها في القارة كثيراً من الرطوبة بحيث لا تترك منها شيئا يذكر ، ولذلك فمنطقة الساحل الغربي الداخلية والفقيرة بمجاري الماء لا تتلقى شيئاً يذكر من الأمطار .

وتتجه الرياح في الشتاء (من حزيران الى آب) نحو الشمال وهكذا فالامطار لا تجتاز ابداً حدود الهضبة الشرقية .

وبحسب نظام الرياح والأمطار نرى الجهة الشرقية تؤلف منطقة كثيرة الري وتغطيها الأحراش والمراعي الواسعة . وكلما اتجهنا نحو الغرب نلاحظ ازدياد

درجة التبخر وظهور الجفاف في السهول الواسعة ، ويزداد هذا الجفاف شيئاً فشيئاً حتى نصل الى الصحراء .

ومن الغريب أن شبكة المياه لم تلعب دوراً كبيراً في هذه المنطقة . فالانهار غير صالحة للملاحة ، وكذلك الأنهار الصغيرة أو الجداول فمجاريها سريعة للغاية ، كما تجف فترة من الزمن أثناء السنة . ولا نجد من السكان من يمتهن صيد الأسماك ولا من يتجولون في القوارب أثناء الرحلات الطويلة ، أما خصب البلاد فيتوقف مباشرة على مياه الأمطار ومياه الأنهار .

ويبلغ عدد قبائل الباتنو او سود أفريقيا الجنوبية الذين يسكنون هـــذه المنطقة الواسعة ثمانية ملايين . ويقسمون سياسياً الى عدد كبير من القبائل بحيث لكل واحدة اسماً خاصاً بها وأرضاً محددة ورئيساً هو محور حياتها العامة .

وتتراوح القوة العددية للقبيلة الواحدة بين عدة آلاف ونصف مليون؛ فدولة الباسيتو *Basuto* التي يبلغ عدد سكانها هذا الرقم ، قد ظهرت الى الوجود منذ قرن من الزمن بفضل زعيمها (موشيس *Mochech*) الذي ساعد على تكوينهـــا بضم عدد كبير من القبائل الصغيرة التي تنتمي الى أرومة (التسوانا *Tsvvana*) .

كما ان سكان (النـــاتال) و (زولولاند) الذين كانوا ينقسمون سابقاً الى عدد كبير من القبائل قد توحدوا اليوم تحت اسم واحد هو (الزولو) وهو اسم لاحدى الجماعات الصغيرة التي استطاعت في اوائل القرن التاسع عشر ان تبتلع جميع جيرانها . وكلنا يعرف تماماً الدور الذي لعبته قبائل (الزولو) في القرن الماضي .

وباستطاعتنا ان نختصر تاريخ جنوب شرقي افريقيـــا في مجموعة من الحروب المتلاحقة والمعقدة التي تسير كلهـــا على نهج واحد ، وبمجموعة من الهجرات ، وبالابادات الجماعية *Exterminations* ؛ والتي أدت كلهـــا اخيراً الى الوحدة

الجديدة التي نراها اليوم .

يملك زنوج جنوب افريقيا حضارة واحدة ، مع تغييرات بسيطة تختلف من مكان الى آخر حسب درجة تأثير العناصر الخارجية ، بحيث خلقت بعض الفوارق في نوع الحياة والتنظيمات الاجتماعية والطرق الدينية .
ونستطيع أن نميز من خلال هذه الفوارق :

١ — مجموعة الجنوب الشرقي وتضم : (*Ngoni* ، التونغا *Thonga* ، الفاندا *Venda*) .

٢ — مجموعة الوسط وتضم (السوتو *Sotho* ، التسوانا) .

٣ — المجموعة الغربية وتضم : الهيريرو *Herero* ، والاوفامبو *Ovimbundu*) .

وتمارس جميع قبائل المنطقة الوسطى والغربية طقوس الختان التي تركتها القبائل الشرقية منذ قرن من الزمن . وكذلك عادة تغيير شكل الاسنان بشحذها بآلة حادة أو استخراجها ، هذه العادة لها نفس الوظيفة في المنطقة الغربية وعند قبائل التونغا في افريقيا الشرقية البرتغالية . كما ان فتح الجروح في الجسد يُنظرُ له نظرة مشرفة في المناطق الشرقية والشمالية . واخيراً فقد أعطت قبائل الزولو والكسوزا *Xosa* الى جيرانهم البوستيمان والهوتانتوس عادة قطع احدى السلاميات التي يطبقونها للغاية ذاتها .

ويعيش السكان الاصليون على شكل تجمعات مبعثرة هنا وهناك يطلقون عليها اسم (كرال *Kraal* ؛ ويضم كل تجمع عدداً من افراد العائلة الواحدة .

وحيث نرى السكان في المنطقة الوسطى يميلون الى التجمع على شكل قرى فان كل تجمع عائلي يبقى بعيداً عن الآخر ، ويحاط المسكن بأوتار طويلة على شكل بيضوي أو نعل فرس ، كما توضع فيه الأغنام أو الماعز طوال الليل ، الى

جانب اكواخهم التي هي غالباً ما تكون دائرية الشكل وذات سقف مخروطأو احياناً على شكل خلية نحل ؛ وتبنى كل هذه الاكواخ على أبعاد منتظمة داخل السور .

وكانت ثيابهم قديماً تصنع من الجلد ، وغالباً ما تكون مطرزة باللآلىء ؛ كما تصنع من تلك اللآلىء الزنانير والعصائب التي توضع فوق الجبهة . ولقد حلّت هذه اللآلىء الرخيصة محل الحلقات التي كانت تصنع من قشر بيض النعام أو المعادن والتي لا يزال البوستيان يستعملونها حتى اليوم

ويتركز الاقتصاد عندهم على تربية الحيوانات الكبيرة وعلى زراعة الأرض . وان التمييز بين هذين النشاطين ظاهر في الشمال ، معدوم في الجنوب .

وكذلك الغذاء فأكثره يعتمد على حساء الحبوب كالذرة وغيرها وعلى اللبن الرائب . وأما العنابر التي يستعملونها فهي عبارة عن جرار كبيرة او سلال ضخمة او ابنية صغيرة منعزلة .

أما قبائل النجوني (Ngoni) التي تضم (الكسوزا Xosa) في الكاب (والزولو Zoulou) في الناتال ، فانها تضع الحبوب في مطامير داخل منازل التجمع العائلي Kraal ، وقريبة جداً من الماشية التي هي اعز ما يملكون .

وفيما يتعلق بحلب الابقار فهو عمل شريف ومن اختصاص الرجال فقط . اما استخدام الثيران للركوب ولحمل الاثقال فهذا امر لا مجال للشك فيه عند جميع السكان . والماشية الكبيرة هي قبل كل شيء علامة من علامات الثراء وهي عملة للمبادلة في حالات الزواج ؛ بيد انهم لا يأكلون الا لحم الطرائد او لحم الضحية وان عملية تذويب المعادن التي جاءت من افريقيا الشرقية تبدو حديثة العهد في هذه البلاد ، وهي العمل الوحيد الذي يشرف عليه رجال اختصاصيون . أما بقية الاعمال الاخرى فتبقى ضمن اطار محلي ؛ فالنساء تقوم بصناعة السلال

والقدور الترابية ، أما الرجال فيشتغلون الخشب ويحفرون أوعية الحلا وينحتون مساند الرأس appuis-tête ، والملاعق ذات المقابض المزينة بصور أنواع الطيور المختلفة . ويبقى هناك التماثيل الصغيرة والاقنعة التي هي عبارة عن تمثيل انساني الا انه فريد في نوعه .

ويعترف السود في جنوب افريقيا بالنسب في خط الأب فقط ؛ فالطفل ينتمي الى جماعة والده كما ينشأ بين اقربائه لأبيه وكذلك تعيش الزوجة الى جانب زوجها . اما الخال ، فهو عدا عن انه يمثل الخط الامومي في العائلة فهو يلعب ايضاً دوراً هاماً وخاصة في السنوات الاولى عند الطفل وما بعدها بقليل .

وتتميز قبائل (النجوني Ngoni)عن جيرانها بأنها تحرّم شرعياً الزواج بل وكل علاقة جنسية بين اثنين يلتقيان في النسب عند أحد الجدود (الاربعة)[1]. ما قبائل (السوتو) فعلى العكس ، اذ نراها تجيز الزواج ببنت الخال، والزواج ببنت الاخ من الأب .

وفيما يتعلق بالتنظيمات السياسية والعائلية ، فهي تنبثق كلها من السلطة الابوية ؛ وان البيت الذي يضم العائلة الكبيرة يعطينا صورة واضحة عنها .

يقول (جينو Junod) في معرض حديثه عن التونغا Thonga ؟ (ان القرية عندهم هي نتيجة لوجود العائلة » .

بينما لا نجد اثراً لمثل هذا التنظيم العائلي عند قبائل الزولو ، والسبب في ذلك تطبيق نظام عسكري عام بحيث اصبح التجمع العائلي الصغير Kraal ، عبارة عن معسكر ، ولا عمل لرب العائلة الا حراسة هذا المعسكر ونقل الاوامر التي يتلقاها اليه .

---

١ ــ والد الام والدة الام ، والد الاب ووالدة الاب .

وفي كل هذه المجتمعات نرى منصب الزعامة يعود الى من هو اكبر سنــاً ثم ينتقل بعده الى اخيه البكر ومنه الى اخيه الثاني . كما كانت العشيرة تضم عــدة قرى بحيث يكون مؤسسوها اخوة او احفاد الجــد الاول الذي اسس العشيرة كلها .

وشيء آخر نراه وقد انتشر وهو اسم التمجيد المشترك بــين افراد العشيرة الواحد : فاسم (ايزيبونغو زولو Isibongo Zoulou) مثلاً هو غالباً مــا يطلق على الجد الاول . وهذه علامة من علامات التدليل ان نتوجــه الى رجل باسم التمجيد لا باسمه الشخصي .

ونرى هنــاك عدة قوانين تتعلق باسم التمجيد . فمن يحمل اسم ايزيبونغو من قبائل الزولو لا يمكنه ان يشرب الحليب الا مع شخص آخر يحمل نفس الاسم . ففي هذا الاشتراك بشرب الحليب تنشأ اخوة دموية بين هذين الشخصين ، ويُمنع على كل واحد منهما الزواج بامرأة من عشيرة أخيه الجديد .

وان اسم التمجيد عند قبــائل السوتو هو (سيبوكو Sebôko) الذي يشير الى احد الحيوانات كالتمساح او الفيل او الاسد او القرد ... الخ . وكل من يحمل هذا الاسم لا يستطيع ان يأكل اللحم او يستعمل الجلد حتى يقتل حيوانــاً من الحيوانات الضارة ، وعند ذلك تُجرى له عملية تطهير ضرورية .

كما نجد أيضاً بأن عبادة الاجداد تشكل في هذه البلاد قاعدة الحياة الدينية . فعند العائلات التي تخضع للنظام الأبوي نرى رئيسها هو وحــده الذي يستطيع ان يشفع للموتى . وتقضي بعض الطقوس عدم اقامة أية حفلة لشرب البيرة قبل ان تُرفع حصة الأجداد ثم تراق على الأرض ؛ كما لا تقام أية وليمة الا وللأجداد حصة فيهــا . فأجداد الزعيم هم مصدر قوة القبيلة كلها وهم يسهرون على كل شيء فيها .

وأخيراً نقول بأن العمل السياسي يرى ارتكازه القوي في الدين . وتعتقد قبائل الزولو بوجود إله خالق هو (الأونكولونكولو Unkulunkulu) الأكبر ، وهو يتميز عن إله الجو الذي يستطيع بعض السَحَرَة ان يراقبوه ، بمجرد القيام ببعض الطقوس الدينية الأصيلة .

وأن (الأونكولونكولو) الأول لم يكن يُعبــد حيث لم يكن له من ممثل على الأرض .

وهناك قبــائل الهيريرو les Herero في جنوب غربي افريقيا الى الشمال وبيشوانالاند Bechuanaland ؛ فهم ، كما يرى عالم تاريخ الانسان الطبيعي ، من زنوج افريقيا الجنوبية ، وأنه لا شيء في صفاتهم الفيزيائية ما يجعلهم منعزلين عن جيرانهم . أما عالم اللغة ، فيصنف لغة الهيريرو مع مجموعة البانتو في افريقيــا الجنوبية . بينما يرى عالم السلالات نفسه أمــام ثقافة مادية وتنظيم اجتماعي يستوجبان الوقوف عندهما بعض الوقت .

يبلغ عدد سكان قبائل (الهيريرو) حوالي /٣٠/ الف ، وهم من مربي الماشية، بحيث نرى نشاطهم في حياتهم يتركز حول اهتمامهم الشديد بماشيتهم وبالبحث لها عن مراعيَ ... الخ .

ومن هنا يبدو لنا الشبه الكبير بين معيشتهم ومعيشة مربي المواشي في شرق افريقيا . وتستطيع النساء عنــد الهيريرو حلب المــاشية كما هو الحال عند الهوتانتوس وعكس نساء افريقيا الشرقية .

أما ملابسهم فتصنع من الجلد كما هي الحال عند كثير من الرعــاة . وكذلك الحلي التي يحملونهــا فهي ثقيلة جداً ، كما ان الأقراط المعدنية التي تزين المعاطف الجلدية تذكرنا بقبــائل (النيليين les Nilotes) ، وحتى الزنانير التي تصنع على شكل دوائر صغيرة من قشر بيض النعام بحيث يثقبونها ويعلقونها بخيط ؛ هذه

الزنانير تذكرنا ايضاً بقبائل الكوازان ، أقرب جيران للهيريورو . أمـا الشيء الظـاهر عندهم في تنظيماتهم الاجتماعية ، والذي يبعدهم عن بقية زنوج جنوبي افريقيا ، هو اعترافهم بالبنوة المزدوجة double filiattou . اذ ان كل فرد عندهم يحمل نسبين ، نسبة الى عشيرة أبيه ونسبة الى المجموعة التي تنتسب اليها امه .

فجموعة (الباتريلينير Patrilinéaire) أوروزو oruzo ، تشغل داخـل المنطقة مجموعة من المنازل التي تبنى على شكل دائري ، أمـا كوخ زوجة الزعيم الاولى فيقع تجاه المذبح الذي تشعل فوقه نار الأجداد المقدسه وتقوم على حراسة الزوجة مع بناتها . تمثل هذه الطقوس التي تتعلق بالنار المقدسة ، الى جـانب طقوس الجد الأول وممثله الذي هو الزعيم ، شبيهة بطقوس النيليين والهيريرو .

ويعتقد الهيريرو بوجود إله للسماء والأرض هو نديامي كارونغـا Ndyambi Karunga ، كما نجد إله السماء في جميع أنحاء غرب افريقيـا وهو (نيامبي او نزامبي او نيامي Nyambi , Nzambi , Nyami . ونرى ايضاً عند الهيريرو وجود الأشجار والأحراش المقدسة التي يعتبرونهـا مهداً لأجدادهم القدماء ؛ ومثل هذا ايضاً نجده عند جيران الهيريرو كالمزارعين في أنغولا ومنطقة الزامبيز .

ويسكن حوض الزامبيز (جنوب أنغولا وروديسيا الشمالية) جمـاعة من السكان المزارعين الذين وجدوا في هذه البقعة منذ القديم ، وتتميز هذه الجماعـة بالدور الهام الذي تلعبه النساء ، بحيث يمكن لبعضهن تولي السلطة السياسية . كما ان بيئتهم الطبيعية التي تتكون من سهول واسعة قليـلة الرطوبة ومنقسمة الى مناطق عشبية واسعـة ، تسمح لهم بتربية المواشي وبممارسة الزراعة بواسطـة المجرفة . بيد ان مجتمعات الرعـاة مثل : (الأوقامبو في انغولا والإيلا Ila في روديسيا) فهم شواذ لما ذكرناه عن غيرهم كما ان واقعهم يدل على وجود نفوذ خارجي . وفي الحيّز الارضي الصحراوي الضيق الذي يمتـد على الساحل بين الاطلنطي وجبل بنغالا Benguela ، نرى مجموعات من القبائل الرحل التي هي كما يظهر مزيج من البوشيان والتي تشكل همزة الوصل مع افريقيـا الجنوبية .

فالقرى هي نفس قرى المزارعين القدماء ، والمساكن اسطوانية الشكل وذات سقف على شكل مخروط وغالباً ما تكون تلك المساكن محاطة بسياج من الأوتاد الطويلة أو من اللبن الأسود ؛ أما نسيج الثياب فكان قديماً من القش المدقوق Battue ، ولقد اختفت تلك الثياب ولكنها تظهر فقط في الاحتفالات الدينية . بينما نرى الثياب المصنوعة من الجلد المصبوغ تظهر عند الصيادين ومربي الماشية . وأما النباتات التي تزرع فهي بحسب تاريخ معرفتها : الذرة البيضاء ، ثم الذرة الصفراء (عُرفت في نهاية القرن السادس عشر) ، واخيراً نبات المانيوك Maoinc. وتستخدم النساء اثناء عملها المجرفة ذات قبضة معقوفة ، وتوضع شفرتها الحديدية في طرفها الآخر على شكل زاوية حادة . كما يستعملن احياناً مجرفة ذات مقبض متشعب بحيث يتسنى مسكه باليدين معاً . وتظهر لنا في الحقل الفني اعمال النحت الكثيرة التجاعيد ، كما في الاقنعة التي تستعمل اثناء الطقوس الدينية في احتفالات ادخال الأولاد في القبيلة ، وهي اقنعة مصنوعة من القماش أو من الخشب .

أما بَدَلُ الزواج فلا وجود له عند قبائل الياو Yao في نيسالاند Nyssaland ؛ حيث يأتي الزوج ليسكن عند اهل زوجته وكذلك اولاده فهم ينتمون الى والدتهم ، كما أن سلطة الزوج عند قبائل الياو هي عملياً لا شيء ؛ فالشخص المهم في العائلة هو اخو الزوجة البكر .

ويقيم الزوجان كما ذكرنا بين افراد عائلة الزوجة . وعلى الزوج على ان يقوم بحراثة ارض والد زوجته (عمه) وان يقدم لعمه بعض العطاءات versements التي تُطلب منه ؛ وعندما يقدم آخر عطاء له يتخذ الزواج صفته النهائية ويُسمح للزوج ان يصطحب معه زوجته واولاده . ونلاحظ في مثل هذه المجتمعات التي تعتمد على النسب الامومي ، ان الغلام الذي اجتاز سني الطفولة يذهب الى بيت خاله الذي يتحمل عبء نفقاته وتربيته . وعندما يموت الخال يستولي اخوته على املاكه كلها . ولكن في حالة عدم وجود اخوة له فان الابن البكر لاخته البكر يستولي على املاكه من ارض وأثاث

وغير ذلك ويكون مكلفاً برعاية أرملة خاله .

ومن هنا نستطيع ان ندرك حالة اختيار vieillard يهتم اولاً بتأمين مستقبل ولده وثانياً بالتزاماته نحو وريثه الشرعي وهو ابن اخته . وهكذا تأتي اهميـة الزواج ببنت الخال في مثل هذه المجتمعات . وقديماً كان هـذا الزواج المرغوب يوفق بين قوانين الوراثة ومصالح الزوجة بحيث يسمح لهذه الزوجة ان تتمـتع بالاملاك التي يتركها الخال لابن اخته والتي يتركها والدها لزوجها .

وننتقل الآن الى مجتمعات المنطقة الوسطى مثل : التيفوكوي Tyivokvue ، والإيلا ila ، والروستا Roste) . حيث نجد فكرة الموت عندهم تشبـه الدودة التي تخرج من الجثة منحلة منها لتصبح فيما بعد طيراً جارحاً ؛ ولقد جاءت هـذه الفكرة من الشرق، وهي تظهر في المجتمعات الايستقراطية في منطقة البحيرات ، وعملية المسخ هذه لا تحدث إلا للرجال البارزين فقط . وكذلك عبـادة جماجم الزعماء فهي ربما كانت نتيجة تأثيرات شرقية ايضاً ، بينما عبـادة شجرة القرية المقدسة تعود أصولها الى مناطق الغرب والشمال .

كما نرى ايضاً في جميع انحاء انغولا والمناطق الجنوبية البعيدة يشيرون الى وجود اكوام ترابية صغيرة ، هي ، كما تقول التقاليد، قبور الصيادين المشهورين . وتذكرنا هذه القبور بقبور (ايتسي ايبيب Heitsi eibib) وهو الروح المهيمنة على المروج والصيد والذي لا يزال البوشيان والهوتانتوس يولونهـا كل احـترام واجلال .

٦ — أفريقيا الاستوائية *Afrique Équatoriale*

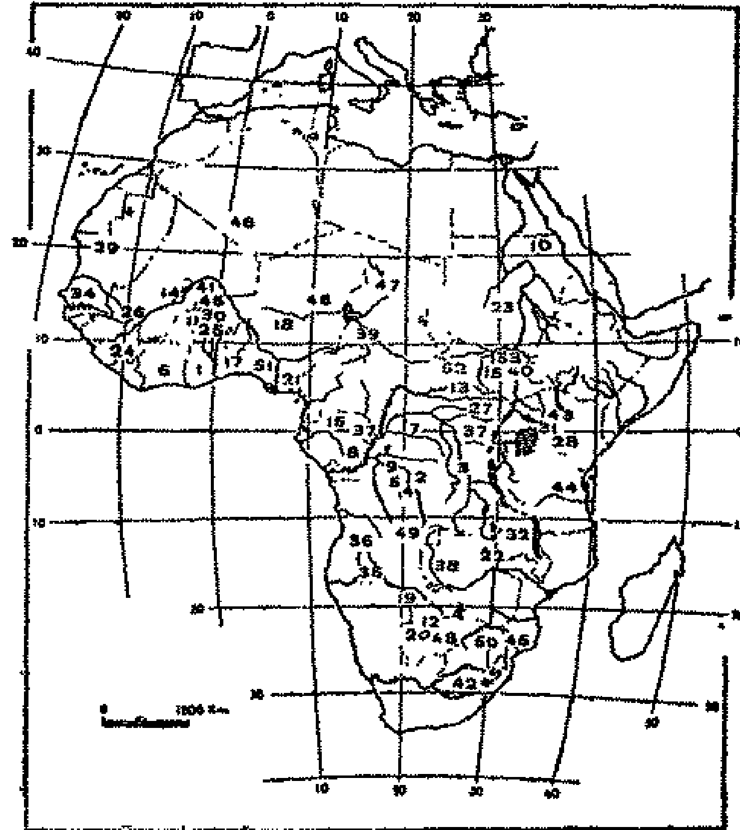
ان الغابة الاستوائية الكبيرة التي هي قلب افريقيـا او (قلب الظلمات Cœur des ténèbres) ؛ هذه الغابة هي موطن السود الكونغوليين .

وتضم هذه المنطقة من الناحية السياسية ، اكبر جزء من الكونغو البلجيكي والكونغو الأوسط والغابون Gabon وغينيا الاسبانية ومنطقة جنوب الكاميرون . وتشرف على هذه المنطقة من الشرق المرتفعات المتواصله التي تحيط بالبحيرات الكبرى ، فاذا بها على شكل صحن منتظم الأبعاد ، او على شكل وعاء ضخم يمر مركزه تحت خط الاستواء قرب كوكيتهاتفيل .

أما الانخفاض الوسط الذي لا يزيد على ٤٠٠ م فهو محاط بهضاب مدرجة لا يخترقها إلا ممر نهر الكونغو المائي . ويعتبر نهر الكونغو من اكثر أنهار العالم انتظاماً ، فهو يتابع عند مجراه الأوسط قوس خط الاستواء ولهذا فهو يستفيد من امطاره المنتظمة الثابتة ، ولا يعرف تلك الفيضانات التي تزيد من مياه نهر النيل والزامبيز أو النيجر . بيد أن مجموعة التضاريس المدرجة تجعل مجرى ذلك النهر عبارة عن خط كثير التعرج .

كما ان الشبكة المائية الكونغولية ، من أنهار وروافد ، تتألف من مقاطع نهرية غير متناسبة ، ومفصولة عن بعضها بمجموعة من الانخفاضات والارتفاعات التي سببتها الأنهدامات العميقة حول المنطقة بحيث تنتشر الشلالات الكثيرة والمجاري السريعة الى جانب القنوات الاخرى التي تنتشر هنا وهناك .

ويغص حوض الكونغو بالمياه الكثيرة ، فالانهار القوية العديدة ، والبحيرات والمستنقعات وغابات الاشجار الواسعة ، كل هذا يجعل الظل والرطوبة يحيان في كل مكان .



الشكل — ٥ — خارطة السلالات

١ — آشانتي
٢ — باكوبا
٣ — بالوبا
٤ — بالوندا
٥ — بامبالا
٦ — باولي
٧ — بارومبي
٨ — باتيكي
٩ — باياكا
١٠ — بيدجا
١١ — بوبو
١٢ — بوشيان
١٣ — بونغو
١٤ — بوزو
١٥ — دانكا
١٦ — فانك
١٧ — فون
١٨ — هاوسا
١٩ — هيريرو
٢٠ — هوتانتوس
٢١ — ايبو
٢٢ — ايلا
٢٣ — كابابشي
٢٤ — كيسي
٢٥ — لوبي
٢٦ — مالينكي
٢٧ — مانغبيتو
٢٨ — ماساي
٢٩ — مورس
٣٠ — موساي
٣١ — ماندي
٣٢ — نغوني
٣٣ — نوير
٣٤ — اولون
٣٥ — اوفامبو
٣٦ — اوفبوندو
٣٧ — بيجمي — الاقزام
٣٨ — روستا
٣٩ — سارا
٤٠ — شيلوك
٤١ — سونفهي
٤٢ — سوتو
٤٣ — سوك
٤٤ — سواحلي
٤٥ — تونغا
٤٦ — تواريج
٤٧ — توبو
٤٨ — تسوانا
٤٩ — تيفوكوي
٥٠ — فاندا
٥١ — يوروبا
٥٢ — زاندي .

أما الماشية فلا نجد منها سوى الماعز فقط .

وفي كل يوم تظهر الشمس فوق تلك الكميات الهائلة من الماء ، تراهـــا تقوم بعملية تبخير شديدة ، وكذلك تمتلىء السماء بعد ظهر كل يوم بالغيوم ؛ وغالبــاً ما تحدث تلك الغيوم عند غروب الشمس بعض العواصف ؛ أمـــا الليل فهو على العموم نيّر ومشحون بالرطوبة ، وهكذا حتى يطلع النهار وتبدأ عمليـة التبخر من جديد .

أما الأمطار فتهطل طوال السنة وتبلغ قوتهـــا في شهر آذار وتشرين الاول وكذلك تتأرجح الحرارة بصورة عامة بين ٢٦° و ٢٨° .

ومثل هذا الاستمرار في المناخ يمنع وجود الفصول والمواسم تقريباً ، لأن الأيام والشهور هي متشابهة ، وكذلك لا تظهر الطبيعة بأنها تحمل شيئاً جديداً .

وفوق الهضاب التي تحيط بالحوض نرى نظام الأمطار الاستوائية الدائمة يفسح مجالاً لوجود نظام دائرة الانقلاب بامطاره الموسمية ؛ ولذلك نرى الغابة تصبح أقل كثافة وتنحسر قليلاً امام المرج الأخضر الشاسع .

ويغطي السهل في الجنوب جميع الهضـاب التي تمتد مـــا بين نهر الكونغو والزامبيز ومنطقة كاتانغا . بينما لا يبدأ هذا السهل الا عند أعالي نهر الأوبانغي *oubangui* ومنابع السانغا *sangà* حيث يتصل بالمنطقة السودانية . تكون المساكن في الغابات على شكل مستطيل وهي مبنية من الخشب وأوراق الشجر . ويتألف الكوخ قبل كل شيء من دريئـة من الأغصان الصغيرة تستند على احد الاغصان المنخفضة ، وعندما يرتفع الكوخ يظهر سقفه المـــائل مع جملون له ، بحيث تستند الواجهتان من الأعلى على جسر خشبي ومن قاعدتها على أعمدة خشبية ؛ وأما الجدران فهي من الأغصان او قشور الأشجار .

وتمتد الأكواخ على صفّين متقابلين بحيث تشكل ما بينها شارعاً يتجه بشكل

عمودي على النهر ، كما يُبنى في طرف كل شارع بيتاً مشتركاً للجميع ؛ ويخصص هذان البيتان للرجال فقط حيث يأكلون فيها ويستقبلون الغرباء أيضاً . امـــا الفراغ الارضي الذي يحيط بالأكواخ من الجانبين فيزرعونه موزاً وبعض النباتات الدرنية وذلك كاحتياط للطوارىء في حالة فقدان مؤونتهم .

ويمارس هؤلاء الاقوام الصيد بواسطة الحُفَرْ ، حيث يصفون الخوازيق في اسفلها ثم يغطونها بالأغصـــان الصغيرة ، وبهذه الطريقة يستطيعون الامساك بالطريدة . أما الحملات الجماعية التي يرسلونها للقطاف فتتم في الفصول التي تقـــل فيها الرطوبة ، اي بعد مرور الشمس بمنطقة السمت *Zênith* . ويجمعون اثناء قطافهم كمية من الحبوب ، والثار البرية ، وأهم غذاء يبحثون عنـــه هو تمر البلح الزيتي *palmier à huile* ، حيث يستهلك اهـــل البلاد لوز *Amande* الغني بالزيت ، وكذلك شجر الآسيا *Ascia* وهو من فصيلة البُطم بحيث يغلون ثمـاره فأما ان يأكلوها او يتركوها كاحتياط بعد ان يحفظوها مع الملح والفلفل الأحمر .

وبعد مضي عدة سنوات ، تجهز القرية حملة للزراعة . فيبدأ الرجـال بقطع الشجيرات والاعشاب من الأرض التي تحيط بمساكنهم كما يقطعون الأشجـــار الكبيرة فلا يتركون منها سوى جذعها على ارتفاع مترين او ثلاثة ، ثم يحرقون ما قطعوه ليجعلو من رماده سماداً للأرض . وبعد هذه العملية يبدأون بزرع الموز ونبات المانيوك *Manioc* ، والبندورة وغير ذلك من النبـــاتات المعروفة عندهم . أما العنابر فلا وجود لها عندهم ، لانهم يجمعون حاجتهم الاستهلاكية من الأرض يوماً بيوم ، ومثل هذا العمل يعيد الى أذهاننا حيـاة جيرانهم الأقزام ، اذ نرى النساء عندهم يقمن بأعمالهن اليومية التي تنحصر بجمع جذور النبـــاتات القابلة للاستهلاك ، ومثل هذا العمل تقوم به نساء السود اللواتي يجمعن كل مساء بعض نباتات المانيوك والقلقاس لتحضير الوجبات الغذائية للرجـال . وبعد فترة من الزمن تضعف الأرض التي يستعملونهـا لزراعتهم وتصبح قليلة الخصب ولذلك يضطرون للذهاب بعمداً في الغابة ، كي ينشئوا أرضاً جديدة بعد قطع أشجارها .

وبعد ان يختاروا المكان الجديد ، يبنون منازل مؤقتة يسكنها بعض الرجـــال والنساء الذين يقومون بهذا العمل طيلة المدة اللازمة لاتمـام أعمالهم التحضيرية . وعند الانتهاء من زراعتهم يتركون في تلك المساكن بعض الرجـال ليقوموا على حراسة الأرض من بعض اللصوص والحيوانات المخربـــة كالقرد وفرس البحر والفيلة . وهكذا دواليك حتى تصبح هذه الأرض مجدبة فينقلون الى غيرها ... حتى يأتي زمن تصبح فيه الأراضي التي تحيط بهم غير صالحة للزراعة . وعند ذلك تلتقل القرية برمتها وتغير مكانها . وعلى بعد /٢٠/ او /٣٠/ كيلومتراً تنشأ قرية جديدة . ولكن ليس من الضروري ان تضم هذه القرية الجديدة كل سكانهـــا السابقين اذ نرى بعضهم يفضلون التمركز في مكان آخر او ينضمون الى أقاربهم الذين يسكنون بعيداً عنهم .

ونرى في الهضاب التي تشمل المنطقة المكشوفة من غياض وسهول وغيرها ، ان تجمعات السكان أقوى منها في أماكن أخرى ، وان انضمام القرى الى بعضهـا مألوف وكثيراً ما يحدث ؛ كأن تتحد أقسام القبيلة المختلفة وينضم أفرادها تحت لواء زعيم واحد ، او ان تقوم هناك محالفات وقتية أثنـــاء حملات الصيد ، او للغزو وهذا ما كان يحدث قديمـــاً . كما ان شكل البيت الاسطواني ، الذي حل محل الشكل المستطيل ، أصبح يتألف من سقف مدبب يُغطى بالقش . الا ان القبائل التي تسكن أعالي حوض نهر الكاساي *Kassai* ، لا تزال تبني بيوتها على شكل مستطيل . ولكن مناطق وديان الغابات التي تكثر فيها مجاري الميـــاه العريضة هي اكثر المناطق ازدحاماً بالسكان : فهناك قبـــائل البايا كا *Bayaka* والبامبالا *Bambala* والباكوبا *Bakuba* ، التي تختلف حياتها عن حياة سكان الغابة وعن حياة سكان السهول ، وهي تجمع بين الحياتين معاً مع وجود صناعات بدوية راقية .

أمـــا في الشمال الشرقي فعلى العكس ، اذ دخلت البيوت ذات الشكل الاسطواني الى الغابة مع دخول قبائل الزاندي *Zandé* وقبـــائل المانغبيتو

Mangbetu الذين جاؤوا من جهة الشمال .

وتتميز الغابة بأنها تستقبل القادمين اليها من الرجـال ولكنها لا تفيد أحداً منهم ؛ فهي قبل كل شيء تعيق المواصلات وتفرض بحكم واقعها توزيع الجماعات المدحورة التي طُردت من المناطق السهلية وجاؤوا يطلبون ملجـأ فيها . وتبلغ كثافة السكان فيها نسبة ضئيلة حيث تصل الى اثنين في الكيلومتر المربع ، ورغم ذلك فهي تضم في داخلهـا عدداً كبيراً من المجتمعات الجزأة . ولا يوجد سوى ضفاف الأنهار التي تعج وحدها بالسكان رغم وجود ذبابة الشي — تس . لأن وجود النهر يسمح بالانتقال من أرض الى أخرى لزراعتهـا واستثمارها ، كما ان وجود القوارب يحل مشكلة الانتقال من ضفة الى اخرى . كما ان القناة المتفرعة عن نهر الكونغو بين [ستانلي فول *Stanley Falls* وستانلي بول *Stanley Pool*] ، هي قناة صالحة للملاحة ولا تنقطع الحركة التجارية فيها بواسطة قوارب قبـائل الباتيكي *Batéké* والبالولو *Bâlolo* ، والباورمبي *Bârumbi* . وأما المواد التي يتم تبادلها فتنوعة : فهناك الآراشيد والمانيوك والسمك المُدَخَّنْ *fumé* ، والعاج ولوز شجر البلح الزيتي والكاوتشوك . وعند العودة يحمل التجـار الأدوات النحاسية من قبـائل البادوندو *Badondo* والأقمشة المصنوعة من ليف شجر الرافيا *Raphia* وكذلك الأوعية الفخارية الـتي يصنعها سكان البلاد الأصليين . وكذلك نرى البضائع الأوروبية التي يكدسها التجار في مراكزهم على ضفة النهر كي يتم بيعها فيما بعد .

كما ينتشر على طول المجاري المائية الصالحة للملاحة جمـاعات اختصاصيون في نقل البضائع فوق الماء . فهنـاك قبائل الاورونجو *Ouroungou* في منطقة الاوغووي *Ogooué* ، وقبائل البانغو *Bongo* والزاندي *Zandé* في منطقـة الأوبانجي العليا **Oubangui haut** ، وقبائل البيا كا *Bayaka* واللولوا *Lulua* مع بعض قبائل البولوندا *Balunda* على ضفاف الأنهار في حوض كاساي *Kassaï* .

ليس هنـاك عملة حقيقية للتداول ، بل نجد بعض الأدوات المعدنية ذات

ذات الأبعاد المختلفة والوزن المختلف أيضاً تقوم مقـام النقود ، كنصال السيوف القديمة او حديد الفؤوس او حديد رؤوس الحراب ؛ وكذلك اللآلىء المصنوعة من الزجاج او الخزف التي توجد في كل مكان تقريباً ؛ في رقـاب العجائز مثلاً او محفوظة داخل الاكواخ او مدفونة في الأرض مع أصحابها . أما ادخال الاولاد في القبيلة فغالباً ما يتميز بعملية الختان ؛ او تقام بمناسبتها حفلة تُقدّم فيهـا الضحايا ، كما هو الحال في بلاد الشمال .

ومهما كانت طبيعة عملية الادخال هذه فقد اصبحت تقام خـارج القرية ، لأن مجتمع الرجال قد أصبح كما يبدو مجتمعاً سرياً تقريبـاً . ويرافق زمن البلوغ عند البنات فترة من الانعزال ، بحيث تبقى البنت دون عمل ، وتحـاول الأكل كثيراً ، اذ عليها ان تصل الى الزواج ممتلئة الجسم وذات بِشرة زاهية .

أما نظامهم الاجتماعي فغالباً ما يكون ديموقراطياً ، وكذلك العشائر فهي تعتمد على النسب الأبوي ، ما عدا بعض المجتمعات الصغيرة التي تعتمد على النسب الأموي والتي توجد في جهة الغرب .

أما الوحدة الاجتماعية المعترف بها فهي القبيلة او العشيرة ، بحيث يعتقـد رجالها بأنهم جاؤوا من جد واحد ثم توزعوا في عدة قرى . أما القرية التي غالباً لا تستقر في مكان معين ، فهي لا تخضع الى سلطة عليا . ومن هنـا تأتي صعوبة تقسيم البلاد على اساس جغرافي الى أقـاليم معينة يخضع فيها سكانها الى زعيم واحد .

ولقد شعر سكان البلاد الأصليين بحاجتهم الى التجمع والالتفاف حول بعضهم، ومثل هذا نراه اليوم في طريقه الى التحقيق في عدة مناطق (كحركة التجمع عند الأيونك *les ayong* ، من قبائل الفانغ *les Fang* ، في منطقة الغابون *Gabon*) .

وفي الجنوب لا تزال ذكرى بعض الدول ماثلة هنـاك : كمملكة الكونغو

وامبراطورية لوندا ولوبا وشونغو *Shongo* . فامبراطورية لونـــدا *Lunda* التي انتشرت في انغولا والكونغو البلجيكي يعود الفضل في تأسيسها الى صياد من قبائل لوبا *Luba* الذي ظهر في اوائــل القرن السابع عشر ثم انتشر احفــاده في الجهات الشرقية والشمالية .

وفي عام ١٤٨٢ اكتشف البرتغالي كاوا *Cao* مصب نهر الكونغو حيث يوجد حجر اثري يشهد على ذلك. كما ان كاوا هو اول رجل اوروبي استطاع ان يتقرب من (المانى كونغو *mani congo* (أي ملك الكونغو) الذي كانت مملكته تمتــد بين لرانغوا *Loango* والكوانغو *Kwango* والكوانزا *Kwanza* . وكان حــكام الممالك المجاورة له من أقربائه ومن اتباعه بنفس الوقت . وحوالي منتصف القرن السادس عشر استدعى ملك الكونغو (الفونسو الاول *Alfonso per* من المذهب الكاثوليكي) العمال الأوربيين والمبعوثين الدينيين والتجار . ولقد دامت مملكة الكونغو المسيحية ، مدة قرنين من الزمن ، انشىء خلالهـــا عدد من الكنائس وحطمت آلاف الاصنــــام . وكانت السفن التي تحمل المنتوجات الصناعيــــة الاوروبية ، تعود وهي محملة بالرقيق . ولكن في عــــام ١٧١٧ ، وأثر الحروب المحلية التي قامت في البلاد ، طرد السكان المبعوثين الاجانب وقطعوا كل علاقــة مع البرتغال ، وأخذ النفوذ المسيحي منذ ذلك الحين يتقهقر وعاد السكان الاصليون الى عباداتهم وطقوسهم المحلية وهم أشد تعلقاً بالأصنام . وبعد مئة وخمسين عامــاً من ذلك اصبح الصليب علامة وقائية *Prophylactique* ورمزاً للأجــــداد ، بالاضافة الى وجود بعض التماثيل الصغيرة في البــــلاد والتي بقيت ذكرى اولئك القديسين الاوربيين في القرن الخامس عشر والسادس عشر ؛ وبقي أيضاً في البلاد مجموعة من التماثيل الاخرى المليئة بالمسامير الصغيرة بحيث تذكرنا بعــــادة كانت منتشرة الى وقت قريب في الريف الفرنسي وهذه العادة هي عبــارة عن وضـــع دبوس صغير فوق صورة احد القديسين ، بحيث يضطر ذلك القديس الى الاستماع بروية الى رغبات من غرس الدبوس .

وفي عـــام ١٨٥٧ زار باستيان Bastian الالماني مدينة سان سالفادور San Salvador عاصمة الكونغو قديماً ، فلم يجد فيها سوى اطلال أبنية حجرية ؛ ولكن لغة اهل العاصمة المنتشرة في كل مكان هناك، كانت تستخدم لغة للاتصال بين جميع المجتمعات . واذا ما اتجهنا بعيداً الى الشرق نرى قبـــائل البالوبا التي يبلغ عددها /٥٠٠/ الف تقريباً ، تشغل المنطقة الواقعة بين درجـــة ٦° — ١٢° لخط العرض جنوباً وبين ٢٤ — ٢٩ درجة لخط الطول شرقاً .

ولقد قامت هناك ممالك كبيرة من قبائل البالوبا منذ القرن السادس عشر ، ولكن تاريخها بقي غامضاً ، كما ان بعض تلك الممالك قد بقي حتى اواخر القرن التاسع عشر .

واذا ما اوغلنا في جهة الشرق ايضاً في منطقة كاساي Kassai تعترضنا قبائل الباكوبا Bakuba أو الباشونغو (Bushongo)[1] ، وتقسم هذه القبائل الى سبع عشرة قبيلة وتخضع كلها لملك مقدس واحد وتسكن البلاد التي تقـــع بين نهري سانكورو وكاساي وبين درجة ٤ و ٥ لخط العرض نحو الجنوب . ولقد جاءت تلك القبائل من ضفاف الاوبانغي *Oubangui* والشاري *Chari* . ولقد استطاع توردي *Torday* الذي زارهم عام ١٩٠٨ ، ان يتوصل الى معرفـــة اسماء الملوك الذين تعاقبوا عليها ويبلغ عددهم /١٢٠/ ملكاً. نذكر منهم شامبابو لونغولونغو *Shambabo longo longo* ،وهو اعظمهم،بحيث قام في اوائل القرن السابع عشر باعادة تنظيم الحكومة ، كما حاول الغاء الحروب التي تستعمل فيها السهام ورمي السكاكين ، وينسبون اليه استعمال زيت البلح وادخال زراعة المانيوك *Manioc* والتبغ ، وصناعة النسيج بواسطة خيطان شجر الرافيا *Raphi* وكذلـــك تطريز ذلك النسيج بحيث يصبح منظره كمنظر المخمل ؛ واخيراً فان اقدم التماثيل الخشبية الصغيرة عند قبائل الباكوبا تمثل البطل العظيم شامبا بولو: ، نغو .

---

١ ـ يشتهر رجال هذه القبائل برمي السكاكين .

ترتكز جميع الممالك التي ذكرناها على نظام اقطاعي مع وجود أربعة أو ستة ملوك للمقاطعات يحيطون بالحاكم العام للدولة .

ويصف لنا توردي *Torday* التنظيم الحكومي عند الباكوبا فيقول : يرأس الملك نيمي (*Nyimi*) وهو لقبه مجلس الوزراء الذي يتألف من رئيس وزراء ووزير للحرب مع الممثلين الاربعة لمقاطعات الدولة وامرأتين هما اختا الملك او ابنتاه . وتحمل واحدة منها لقب حارسة السلام *gardienne de la paix*، بحيث تكون مهمتها اعطاء وتر القوس الذي يضعه دائماً حول رقبتها الى وزير الحرب في اول المعركة الحربية ولا تسترده منه الا عندما يعود السلام .

أما بلاط الملك فيضم عدداً كبيراً من الموظفين ومن ممثلين لجميع المهن *professions* والقبائل التابعة للملكة ومن بينهم الاقزام أيضاً . أما المؤرخ المكلف بحفظ الاساطير والتقاليد فهو ابن الملك والذي يفوق مركزه مركز بقية الامراء .

وعند اجتماع المجلس الكبير للدولة ، يجلس الملك فوق مصطبة يحيط به وزراؤه ، وكذلك والدته فهي تأخذ مكانها الى جانبه فوق كرسي مرتفع . ويتمتع الملك نظرياً بسلطة مطلقة ، بيد ان سلطته هذه تحدد في الواقع من قبل اعضاء قبيلته التي ينتمي اليها ، وهي قبيلة البامبالا *bumbala* . ولا ينظر اليه اعضاء قبيلته كزعيم زمني مؤقت بل يرون فيه الحلقة التي تشرق فيها روح البطل بامبا *bumba* مؤسس القبيلة الأول، الذي يمد الشمس بنورها ويرسل الأمطار لتسقي الأرض وتزيد خصبها . ولذلك فان كل اهانة توجه الى الملك فهي اهانة في نفس الوقت لجميع افراد القبيلة . ولقد كان على الملك ان لا يلمس الارض كيلا تلتهب من جراء ذلك « ولهذا نرى أحد الخدم يحمل الملك فوق كتفيه دائماً .

وأخيراً فاننا نجد نفس القوانين الملكية في افريقيا الشرقية ، عند الممالك التي تتبع نفس التنظيمات الاجتماعية .

كما أن التقارب في العناصر المدنية واضح ايضاً في أفريقيا الشرقية وان مَرَدّ ذلك الى وجود طبقة ارستقراطية تسيطر على تلك المناطق منذ القديم .

٧ – أفريقيا الغربية *Afrique Occidentale*

تمتد منطقة الغابات على طول الساحل الغربي حتى ليبريا . وهنـاك انكسار أرضي واحد يفصل كتلة أفريقيا الوسطى عن كتلة غابات غينيا . ويطابق هذا الانكسار طريق بينويـــه *Bénoué* ، الذي يؤدي الى البحر الأبيض المتوسط بواسطة الكاوار Kaouar والفزان *Fezzan* .

ومن الامتيازات التي تتمتع بهـــا منطقة اسفل خليج غينيـــا ، أمطارها ونباتاتها المعتدلة ، بحيث تسمح بوجود حقول الذرة وأشجار البلح : ولقد شهدت هذه البقعة الواسعة من الأرض ولادة مدنيات عظيمة فيها في الايفي *Ifé* والبينان *Bénin* والداهومي *Dahomey* . واذا ما صعدنا قليلاً نحو الشمال نرى الغـــابة تنكشف ثم تنحسر أمام سهل واسع تتخلله بعض الادواح من الأشجار.

كما تشكل المنطقة الوسطى من شاطىء الذهب وشاطىء العاج والقسم الجنوبي – الشرقي من غينيا أرضاً خصبة ، وتُروى بشكل جيد مـــا بين شهر نيسان وشهر تشرين الثاني . وتشتهر هذه الأرض بزراعة بعض أوراق النباتات وأشجار الموز والقهوة والارز والحبوب .

ونرى من أعـالي نهر الكازامانس *Casamance* حتى شمـــال الداهومي *Dahomey* ، ينتشر المثل القـائل : « في المكان الذي تظهر فيه شجرة الكاريته *Karité* ، تبدأ حدود السودان » .

كما تنتشر في هـــذه المنطقة اشجار البومباكس *Bombax* والنيري *Néré* واللانجي *Lingué* فتغطي بظلالها النجيليات *Graninées* التي تقضي عليها النيران

كل عام قبل حلول الأمطار . وتسقط هذه الأمطار بغزارة من شهر نيسان حتى تشرين الثاني فتغسل سفوح الأراضي المرتفعة والصخور القاتمة والأراضي الحمراء المنخفضة .

وكلما صعدنا الى الشمال نرى السهل الكبير يصبح اكثر وضوحاً الا أنه لا يخلو من الأشجار التي تزداد في الأماكن المنخفضة الرطبة وتقلُّ فوق الهضاب . كما نرى آثاراً لأشجار البوباب *Baobab* ، وشجر الآكاسيا وشجر التمر الهندي. وكذلك فترة الشتاء فهي حارة لظهور الشمس أثناءهــــا . ولكن وجود خمسة أشهر من الجفاف يجعل الهواء اكثر صفاء ونقاوة ، ويرتاد هذه المنــاطق ، أفراد قبائل البول *Peul* الذين يهتمون بتربية الماشية وخاصة الجاموس ، كما تشتهر هذه المناطق أيضاً بالذرة البيضاء وبالآراشيد *Arachide* .

ولقد قامت في تلك البلاد ممالك كثيرة تمتد من جنوب بلاد الأولوف *Ouolof* وبلاد السيرير *Sérère* حتى الهاوسا والبورنو شاملة معها المـــاندينج *Manding* والبامارا والموسي *Mossi* .

واذا ما اقتربنا من الساحل ، يبرز العشب الكثيف المملوء بالشوك ، وكذلك شجر البلح الذي يحتل مكان شجر البوباب *Baobab* . وهنا يجتاح الرمل كل شيء اذ تحمله الرياح البرية التي تجتاز الصحراء .

ولا يعتمد الفلاح في هذه الارض الا على بضع ساعــات من المطر الغزير الذي يسقط بين شهر تموز وأيلول . أما مربو الماشية فيتفرقون في الشتاء في المنــاطق المليئة بالشوك والأعشاب ، وفي موسم الجفاف يعودون الى المناطق المتطرفــة ، حيث توجد مواضع المياه من أنهار وآبار .

ونجد كذلك منــــاطق على امتداد واحد كهضبة السنغال السفلى والحوض النيجري وحوافي بحيرة تشاد : بحيث تشكل الفيضانات السنوية فيها الى جانب

رقعة المياه الواسعة أرضاً صالحة لزراعة الارز ولتربية الماشية ولصيد الأسماك .

ان جميع السكان على الساحل الغربي هم عبـــارة عن مجموعة من المزارعين يتوزعون في الأمكنة التي تكثر فيها المياه لتساعدهم في اعمالهم الزراعية . كما نجد أيضاً رجـــال قبائل الديولا *Dioula* الذين يشتغلون بنقل البضائع ، فنراهم وهم يدفعون أمامهم الحمير التي تحمل على ظهورها الملح والكولاس *Colas* ، والتوابل وبعض البضائع الأوربية ؛ كما يسوقون أمامهم الثيران التي يتسللون بهـــا عبر الحدود خلسة .

ولكن مـــا أن ينتهي فصل الشتاء حتى يعود الكثير منهم الى قراهم ليقوموا بأعمالهم الزراعية المعتادة . وحتى النجارون والحدادون وبقية أصحاب الحرف يمارسون الزراعة أثناء المواسم الزراعية . حتى الآن نرى العامل المهني بجوار المراكز الحكومية ، يترك عمله عند نزول اول قطرة من المطر ليشتغل في حقله ، ثم يعود الى عمله بعد ان يقوم بجمع الأعمال الزراعية .

ويختارون حقولهم عادة في الأراضي الكثيرة الأشجار . وقبل مجيء موسم هطول الأمطار ، تقوم العائلة كلها بالأعمال الصالحة لتهيئة الحقل ، وهذه الأعمال من ضمن طقوسهم الخـــاصة ، ويأتي بعد ذلك العمل لقلع الأشواك والحشائش ، فيقطعون الأشجار ولا يتركون منها الا ارتفاعاً يساوي قامة الرجل مع الاحتفاظ بنوع هذا الشجر ولذلك فهم لا يحاولون اقتلاعه . وعندما تجف الأغصان والأعشاب التي قطعوها تضرم فيها النار لتصبح الأرض نظيفة وليستخدم الرماد كسماد لهذه الارض . ثم يلقون البذور في باطنها بعد ان يحركوا سطحها بالرماد ، ويحاولون قلب الأرض جيداً بحيث يعلو التراب الجديد سطح الأرض. وتُعَشَّب الارض بعد زرعها مرتين او ثلاثاً من قبل النساء والأطفال ، وبعد التعشيب يبدأ موسم جمع المزروعات ، وهو عمل مشترك بين الجميع . وتكون خيرات الأرض وافرة في أول سنة ، فتعطي الذرة البيضاء والأراشيد او الارز بحسب المناطق .

اما في السنة التـــالية فلا تعطي الارض سوى محصول رديء ؛ وهكذا تخف الحاصلات عاماً بعد عـــام حتى تضعف الأرض ولا تعطي شيئاً . وعند ذلك وجب ترك هذا الحقل الى حقل آخر تُرك منذ عـدة سنوات بوراً كي يستريح ؛ وربما تضطر القبيلة الى نقل القرية كلها او الى اقامة مسكن احتياطي في الحقول المزروعة . وهكذا نرى وجود نوع من الزراعة المتلاحقة في حقل واحد حتى ينقطع هذا الحقل عن اعطـــاء اي شيء . واخيراً نستطيع القول بأن الطريقة الافريقية في الزراعة تتميز باستثمار الارض كلياً حتى آخر امكانية عندها . والى جانب الأراضي المزروعة نرى هنـــاك بساتين الخضار التي توجد حول مساكن القبيلة ، وهي بساتين غنية لما يُلقى فيها من فضلات ومواد عضوية ؛ ولا يعتمدون في زراعتهم لهذه البساتين على السقايـــة . فهم يدفنون حبوب الذرة في ثقوب أرضية فوق التلال الصغيرة ، ويطمرون نبات التاروس *Taros* أيضاً كما يزرعون القلقاس ، وكل نوع من هذه المزروعات يبث جذوره في الارض على أعمـــاق مختلفة . وتنضج الذرة في فصل الشتاء وتبقى حتى يحين موعـــد زراعتها من جديد ؛ وبعد ان يجمعوهـــا من الارض يبدؤون فوراً بزراعة أدران النباتات الاخرى وهكذا تتتابع المحـــاصيل دون انقطاع حتى في فصل الجفاف . كما يستغلون في بعض الأحيان الاراضي المنخفضة التي تقع على مجـــاري الاقنية او السيول فينشئون البساتين التي تَغُلُّ لهم البندورة والفلفل الأحمر والتوابـل التي يضعونها في الحساء او مع الفاصوليا او الحمص او الباذنجان .

أما الحصول على السماد ، فيتم باقامة تفاهم بين الفلاح الأسود وبين أحد أفراد قبائل البول الذين يعتمدون على تربية الماشية ؛ اذ تُترك المـاشية في الحقل أثناء فصل الجفاف وتُبعدُ عنه أثناء فصل سقوط الامطار .

تناهض منتوجات السكان الاصليين المصنوعات الاوربية التي تلقى المقاومة بواسطة محاربتها بالدعايات هناك . وكان عالمهم الصناعي بسيطاً يقتصر على بعض المنتوجات المعدنية ولكنها غير كاملة وواضحة ، ولكن من الممكن تحسينها دون

ان تزيل عنها الطابع التقليدي لها .

ولقد ثبت للفلاح الاسود بعد عدة تجـــارب ، بأن حديد المحراث يسبب خدوشاً في الارض (الواقعة في المنطقة الانقلابية) اكثر خطورة من غيرها ، اذ يقضي على جذور الاشجار ويعرض مستقبل الارض للدمـار . فالفلاح الأفريقي لا يستطيـع ان يعتمد في زراعته على قطعة ارض واحدة ، لأن البؤس المنتشر يمنعه من ذلك . كما انه ايضاً لا يعرف الغربة ولا يحب ان يبتعد عن وطنه الا في حـــالات اضطرارية شديدة ؛ فهو يحب ان يعيش فوق أرضه مهما كانت هذه الارض .

هذا ونرى ميلاً شديداً لتوسيع حقول الأرز المغمورة بالمياه ، ويلاحظ ذلك في جنوب غينيا وفي منطقة الشبكة النهرية لأعالي نهر النيجر . بيد ان المناطق التي تشذ عن هذه الزراعة هي المنطقة الداخلية لسهول منطقة الانقلاب .

ومن التناقض الصريح ان يبحث المرء في البلاد الاستوائية عن وجود منـاخ معتدل . فالمناطق الانقلابية في أفريقيا الأكثر صلاحاً لوجود السكان توجد على حدود الغابة الشمالية . حيث نجد قبائل الماند *Mende* والكيسي *Kissi* والتوما *Toma* والجيرزي *Guerzé* والمانون *Manon* في سيراليون وغينيا الفرنسية العليا ، تزرع الأرض التي تنتج لهم الأرز وشجر الموز والمانيوك والبلح الزيتي وأشجـار القهوة وغيرها . ويمتد ذلك السهل بهم شرقاً الى بلاد الباولي *Baoulé* ؛ ثم يصل الساحل حتى اسفل خليج غينيا ، بحيث نرى جنوب بـــلاد داهومي ونيجريا يصبح بكثافة لا بأس بها من السكان تبلغ /٢٠٠/ شخص في الكيلومتر الواحد .

وهكذا فمثل هذه الكثافـــة تؤدي الى استغلال الأرض بشكل ضيق جداً بحيث تتتابع أنواع المزروعات في الارض الواحدة دون وجود فترات استراحة للأرض كما يحدث ايضاً ان تزرع الارض في آن واحد بنوعين من النبـــاتات نوع زاحف ونوع منتصب ، كالأراشيد والذرة .

وفي جميع الاعمال الزراعية التي يقوم بها الفلاح الأسود ، من تعشيب وبذار وحصاد، في جميع انحاء البلاد، ترافقها طقوس معينة، وهي وان اختلفت في بعض تفصيلاتها فانها تتفق في الهدف . وكون الفلاح الاسود يعيش في عالم واسع غير محدود ، فهو مضطر لمسايرة نموذج حيـاته ولتجنب غضب القوى المجهولة التي تهدده وتحيط به . فالأحياء قِلّة تقوم بخدماتها مرغمة لكي لا يتزعزع توازن الحياة : ولذلك فان اقل حركة طائشة او جهل او نسيان ولو كان غير مقصود فان ذلك كافٍ ليجر على البلاد عقوبة الجفاف والمجاعة والعقم او الموت . ومن هذه النظرة نرى اللجوء الدائم الى المقدسات وبناء المذابح والأماكن المقدسة وتقديم الضحايا الكثيرة الى الإله السماوي والى سكان هذه البلاد الأول والى كل الأجداد او لواحد منهم ، وبصورة اخص لتلك الأرواح ولتلك القوى العظيمة التي تتوزع في الطبيعة والتي يشعر نحوها سكان البلاد بشعور غير واضح المعالم تماماً . فليس عندهم من انفصال بين الروحانيـات والدنيويات او بين التنظيم الاجتماعي والتنظيم الديني .

كما ان تكتلهم الاجتماعي يقوم على فكرة القرابة ؛ فأفراد العـائلة الذين ينحدرون من اصل واحد من جهة الأب او من هم في خط عائلي واحد يشكلون مجموعة مستقلة يشرف عليها من هو اقدمهم سناً ، الذي يحفظ طقوس عبادات الأموات ، ويشرف على الارث العام ولا يملكه . وتنتقل السلطة من الأخ البكر الى الأخ الثاني او بحسب بعض المجتمعات من الأب الى الابن او من الخـال الى ابن اخته .

اما الاعتراف بالبنوة التي تأتي عن الخط الأمومي فهو موجود عند قبـائل الأولوف *Ouolof* وقبائل السيرير *Sérères* في السنغال وقبائـل البول *Peul* الغير مسلحين وعند بعض السكان في الغابات .

وكذلك فالتجمع بين الافراد يضم عـادة عائلتين او ثلاثاً ، ويقسم هؤلاء

الافراد الى مراتب بحسب العمر . وأثناء انسحاب المجموعة الى الغابة يقوم بعض البارزين منهم بتعليم الأولاد والبنات على انفراد قواعد المجموعة الدينية والاجتماعية . وأما مدة التعليم فتختلف من مجموعة الى أخرى ؛ فهي تبلغ السبع سنوات كما هي الحال الآن في اعالي غينيا وشاطىء العاج . كما يتعرض كل فرد لكي يصبح عضواً عاملاً في المجموعة ، يتعرض هذا الى نظام دقيق وتجارب جسمانية قاسية . وفي بعض الأحيان يتعرض الفرد الى تغييرات جسدية كالختان او استئصال بعض اعضائه الجسدية او تشريط جسمه او استئصال بعض الاسنان او كلها وهي علامة من علامات الصبر . وفي هذه المجموعات السرية فان سرها يكون في متناول الجميع ما عدا النساء والاطفال . كما ان اغلبية الافراد يكتفون بما يتلقونه من هذه التربية الاجتماعية والدينية . ولكن نرى بعضهم يتضلعون في هـذه العلوم التربوية حتى يصبحوا شيئاً فشيئاً معلمين يسهرون بكل أمانة على طقوسهم . ويمارس المعلمون عملهم وهم مُقنّعين أو مبدلين شكلهم . كما يجتمعون لاتخاذ قراراتهم النهائية برئاسة من هو اكثرهم علماً . والذي اختارته ارواح اجدادهم القدماء . اذ انهم يخشون سطوة اجدادهم الخفية لأن ارواحهم على اتصال دائم مع العالم الخارجي . ويصادف احياناً ان تتخطى احدى المجموعات حدودها المحلية ، بحيث يصبح معلموها مشهورين في مناطق اخرى اذ يبعثون الى تلك المناطق بالرسائل السرية التي تُعرف باسم سيمو *Simo* في غينيا وبورو *Poro* في سيراليون والسودان وشاطىء العاج وكومو *Komo* عند قبائل الماندينجو أورو *Oro* عند قبائل البينان .

أما دور الجمعية السرية فهو تطبيق احترام التقاليد وتوطيد السلام في القرية وذلك بعقاب المذنب الذي تجري محاكمته سرياً او قتله اذا اقتضى الأمر . ولكن يحدث احياناً ان تشذ هذه الجمعية السرية عن أهدافها الاجتماعيـــة ، فيصبح هدفها الوحيد توطيد السلطة ولو بواسطة نشر الرعب . ومن هذه الجمعيات جمعية الرجال — الفهود وجمعية الرجال — التماسيح .

وعلى كل عضو جديد في مثل هذه الجمعيات ان يقدم لرفقائه جثة انسان ؛

ويجب ان يُقتل الانسان على حين غرة وعلى قاتله ان يخدش جسد القتيل بمخالب مصنوعة من الحديد مقلداً بذلك مخالب الطير الجارح ، ثم يرفع من جسمه عدة اعضاء يأكلها المتآمرون معه اثناء اجتماع يعقدونه ليلاً في الغابة ؛ وفي بعض الاحيان يتم القتل بصورة تخيلية ، اذ يقوم الساحر بأكل قلب او كبد الانسان الضحية دون ان يكون له وجود مادي حقيقي ، الا انه يتخاذل رغم ذلك امام قوة الساحر الذي يراه وحده . وانه من الصعب جداً تفسير مثل هذه الأعمال او الحكم عليها حكماً صحيحاً والتي يدخل فيها السحر والشعوذة ، في نفس الوقت الذي تبدو فيه العملية غير منظورة بالنسبة للاعضاء .

والحقيقة هو ان السلطة في مثل هذه المجتمعات الديموقراطية في مظهرها ، تعود كلها تقريباً الى الشيوخ المسنين حراس التقاليد ، المنفصلين عن الافراد، وفي نفس الوقت يمثلون ارواح الأجداد .

وكذلك فالقرية تكوّن وحدة ادارية يشرف عليها رئيس واحد بالاشتراك مع مجلس من الأعيان .

وأما فن البناء فيختلف عند الجماعات ، في السودان الغربي ، والتي عانت تأثيرات شتى من ممالك كبيرة : كغانا ومالي والسونجي . فالطبقية الاجتماعية هنا تبدو واضحة جداً في الحكم: فزعيم المقاطعة يقوم بتمثيل الحاكم العام للمنطقة كلها وله بنفس الوقت رتبة في البلاط الذي يعتبر مركز الاشعاع بالنسبة للدولة كلها . كما يشكل اتباع الدولة هرماً يعلو بعضه فوق بعض وذلك بحسب قوة العلاقة التي تربط كل تابع مع الحاكم العام . اما تأثير الاسلام فواضح وخاصة في الحالات التي تخص المرأة التي لا كيان لها في المجتمع . بينما يبقى العمل في الارض مشتركاً بين الجميع . هذا بينما يبقى عمل الأرض مُخجلاً بالنسبة لمجتمعات قبائل البول — السود في منطقة فوتا تورو ، وفوتا ديالون وفي سوكوتو وآداماوى *Adamawa* .

اذ نرى هنا مجتمعاً أريستوقراطياً عاطلاً عن كل عمل الا مـا يتعلق بالمسائل الحربية ، كما يعتبر العمل اليدوي كالخزف والجلد والحياكة والصباغة وضيعـاً ولذلك يقوم عليه جماعة من طبقة وضيعة ايضاً . اما الحداد فله مكانة خاصة فهو تارة مخيف وتارة محتقر واحياناً الاثنتين معاً. فان جد الحداد هو غـالباً ما يمثل ذلك البطل الذي حمل الى غيره معرفة المعادن ومختلف الصناعات .

ويأتي في آخر درجـات السّلم الاجتماعي الموسيقيون والسحرة الذين هم عبارة عن مشعوذين ومتطفلين على الحاكم لا هم لهم الا انشاء المدائح له .

ولقد كانت التنظيمات السياسية في المجتمع الواحد تتأرجح في مدى قرون طويلة من نظام القرية المستقلة الى نظـام المملكة الاقطاعية . وعندما وصل الاوروبيون الى افريقيا فان حفيد بور مالي *Bour mali* الذي كانت مملكته انموذجاً للدولة الاقطاعية كما وصفها لنا ابن بطوطة ، نراه بعد اربعة قرون عبـارة عن زعيم قريـة فقط . ومن كل التنظيمات السياسية التي بقيت ثابتـة الجموعة التي تعتمد على القرابة الدموية من جهة الأب والتي تعيش على أرض واحدة .

ولكن احتلال مالي من الوجهة السياسية وكذلك بلاد الماندينج قد جعل في هذه المناطق مزيجاً متعارضاً من السكان فهناك قرى المـاندينج والستوكولور والبول والساراكولي *Sarakolé*. فهناك قرية مسلمة وهناك قرية تعارض الاسلام، كما نجد قرية تهتم بالمـاشية واخرى لا تعرف الحليب . وكذلك نجـد الكوخ الدائري بسقفه المغطى بالقش الى جانب البيت المكعب الشكل ذي السقف العادي. ولكن قبائل الماندينج احتفظت بنوع من الارستقراطيـة بحيث كانت تضم رؤساء مقاطعات أغلبهم من المسلمين بينما مجموع البلاد ينتمي الى المذهب الآنيميسم *Animisme* [١] .

---

١ ـ مذهب يؤمن بأن النفس الانسانية هي السبب في كل الحوادث الاساسية في الحياة .

كما نجد ايضاً قبائل السونجي التي تضم عشائر السونزي والسونجوا ... الخ يظهر عليها نفس التعقيد في السلالة . لان الارستقراطيـة التي حكمت كل وادي النيجر من دجيني *Djenné* الى الجاو *Gao* قد امتزجت بعناصر من قبائل التواريج والعرب والمراكشيين — الاسبانيين (الآرمـا *Arma*) وقبائـل الساراكولي *Sarakolé* .

أما الطبقات الوضيعة فاصلها من دجيرما الواقعة في الآفال *aval* . كما ان قبائل الدنوي في شمال داهومي هم من اقرباء قبـائل السونجي . ولقـد ظلت قوافل السونجي تجلب الملح من صحراء تاوديني *Taoudeni* وتحمله الى كل الاسواق السودانية .

وفيما يتعلق بقبائل الموسي *Mossi* البالغ عددهم نحو مليون واربعمئة الف ، فانهم يشكلون دولتين عاصمة الاولى أواغادوغو *Ouagadougou* وأواهيغويا *Ouahigouya* . ويقوم على رأس كل دولة حاكم طاغٍ يـدعى موغور نابا ، يفرض على اتباعه احتراماً دينياً تقريباً ويحيط به وزراؤه . ولقـد استطاعت الارستقراطية الحاكمة عند الموسي *Mossi* ان تفرض الاستقرار الداخلي وان تحمي الدولة ضد كل اعتداء خارجي . فالنبلاء في الدولة يؤلفون المجموعة الادارية الحاكمة ، فهم رؤوساء للقرى والمقاطعات والمنـاطق ، ويعيش تحت سلطتهم مجموعة من الفلاحين والعمال الوضيعين : كالحدادين الذين تعمل نساؤهم في صناعة الخزف والحلي والنجارة والصباغة وغيرها ، اما تربية الماشية فيقوم بها قبائـل البول وكذلك التجارة فهي بيد اختصاصيين .

ولقد عرف الموسي *Mossi* ممالك الماندينج والسونجي واستطاعوا المقاومـة والاستمرار مع نقل بعض التنظيمات الادارية والاجتماعية من اعدائهم . ولا تزال مناطقهم حتى اليوم مأهولة بالسكان ، كما ان أكثر من خمسمائة الف منهم يعيشون خارج حدودهم وخاصة في المناطق المجاورة للشاطىء الذهبي .

واخيراً يأتي دور قبائل الفون Fon في داهومي واليوروبا في جنوب نيجريا، والذين استطاعوا السيطرة على تلك البلاد بطريقة عجيبة .

كما ان ملك آبومي Abomey ذو سلطة مطلقة وهو وحده الذي يملك ارض الدولة كلها . اما اعضاء العائلة المالكة فيتمتعون بامتيازات شرعية ، بيد انهم بعيدون عن ادارة البلاد . فالملك يسمي كبار موظفيه الذين يبلغ عددهم سبعة، ويظهر هؤلاء مع زوجاتهم في الاحتفالات الرسمية . ولقد كانت البلاد تُحكم سابقاً من قبل زعماء القرى والاحياء . كما كان هناك طبقات اجتماعية كرجال القانون وحُجّاب الملك ثم الضباط وكل طبقة لها نظام خاص ثم يأتي بعد تلك الطبقات العوام وهم طبقة الفلاحين ومن بعدهم طبقة المحكومين الذين حرموا من حقوقهم المدنية واخيراً الخدم والرقيق . وترى الى جانب هذا المجتمع الطبقي وجود المعبد الكبير الذي يضم عدةعائلات للآلهة ولكل عائلة وظيفتها المحددة. كما ان الاختصاص في الدين والطقوس عظيم للغاية بحيث ان كل فرد من داهومي Dahomey ينتسب الى فرقة دينية معينة ويقوم بالطقوس التي تخص إلهاً واحداً فقط .

ونجد في تصنيف الآلهة مبدأ الازدواج فهناك :

ليزا / مافو Lisa / mawu التي توافق الشرق / الغرب الشمس / القمر Soleil / Lune ، رجال / نساء hommes / femmes ...الخ. وفي بعض الاحيان نرى مثلاً ليزا / مافو ترمز الى وحدة الجنسين المذكر والمؤنث .

ويعتقدون بأن الخالق قد قسم الكون بين اولاده الاربعة عشر ، فأعطى الى كل ولد منطقة معينة : كالسماء والارض والمطر ... الخ . وكذلك فقد قسم الآلهة الاربعة سلطتهم بين اولادهم الذين جاؤوا بعدهم : فالمطر الغزير ، والرعد، والصواعق ... كل واحد منها. يعود الى اله مختص بها . كما نضيف الى هؤلاء الآلهة آلهة الشعوب التابعة لدولة داهومي: مثل دا Da اي الافعى،التي ترمز الى

حركة الحياة والى كل ما هو طري ورطب ، وكذلك كسيفيوزو *xovioso* اي الصاعقة . ولكل مجموعة من الآلهة التي يطلق عليها اسم فودو *Vodu* ، عباداتها وطقوسها الخاصة وكذلك معابدها . ولها ايضاً كهانها ومعلوها من الرجال او النساء . أما الاموات المقدسين (*Tovodu* توفودو) فهم وسطاء بين الاحياء والآلهة أما الاموات من الذين يحملون الدم الملكي فهم يشكلون مجموعة متميزة ولا يقدسهم الا الامراء الاحياء الذين لا ينتسبون الى أية مجموعة مما ذكرنا .

وتقوم الاحتفالات الدينية في مواعيد تحدد قبل اوانها . فعند موت احد العلماء ينزل الإله في الاحتفال على رأس من يأتي بعد ذلك العالم وعندها يدخل هذا في حالة من الارتعاش الشديد .

أما مدة الاعتراف بالأولاد وادخالهم في القبيلة فهي ثلاث سنوات بالنسبة للبنات وتسعة اشهر بالنسبة للصبيان . والذي تجب ملاحظته هو ان جميع الاحتفالات والطقوس الدينية العامة تتعارض مع الطقوس الخاصة الذي جاء اكثرها من الخارج.وأخيراً فكل ما يقومون به من عبادات ظاهرة وطقوس مختلفة يفسر لنا نظرتهم البعيدة لعالم غير هذا اكثر غنى وعظمة . بيد ان الدراسة العميقة لما يقومون به لا توصلنا إلا الى حركات رمزية تعبيرية تضم بعض الكلمات والضحكات وغيرها التي لا تعبر عن شيء .

وهكذا فما نراه اليوم يقوم به جماعة حديثة العهد ، وليس الأقدمون كما يظن بعض القراء ، ومثل هذا ليس بغريب عن القارة السوداء .

٨ – الصحراء Sahara

ينتمي سكان الصحراء الى سلالات متعددة ويتكلمون لغات متنوعة ، ولهم

طابع حضاري واحـــد يوجهه أهتمامهم الشديد بتربية الجمال التي تستخدم في الحرب والنقل . اما الدين الرسمي فهو الاسلام وان كان فيه بعض الشوائب .

هناك شعب المورس *Maures* الذي يشغل القسم الغربي ؛ في موريتانيـــا والسنغال والسودان وعددهم حوالي /٤٥٠/ الف يتفرعون الى قبـائل متعددة . ففي الساحل نرى مربي الماشية يدفعون بقطعان الثيران عندهم الى الشمال أثنـاء فصل الأمطار والى الجنوب أثنـاء فصل الجفاف . وفي المناطق الشمالية البعيدة تعيش القبائل البدوية التي تعتني بتربية الجمال وهم من أصل بربري زيناغا *Zenaga*، وفي أواخر القرون الوسطى استطاعت قبائـــل حسان *Hassan* العربيـــة ان تجبر هؤلاء البرابرة على ترك الخمار ولكن دون ان تختفي كل التقاليد البربرية وخاصة حرية المرأة الواسعة .

أمـــا الحكم الطبقي في المجتمع فكان يبدو واضحاً بوجود الارستقراطية العسكرية التي تتمتع بها قبائل حسان *Hassan* العربية وذلك بسيطرتها على كل القبائل الاخرى .

أما الواحات فيقطنها جماعة من المرابطين الذين يمتازون بثقافتهم وتجـارتهم وبرجوازيتهم ، ويسكن معهم بعض الفلاحين السود من الرقيق او المعتوقين ويطلق عليهم اسم الحرّاتينيين *Harratin* .

أما الواحات القديمة الجنوبية كعطار *Atar* والأوالاتا *Oualata* والنيا *Nema* فقد كانت معقلاً للمسلمين ، وحيث ينطلق منها بعض المرابطين الذين كانوا يعملون في تجارة التمائم وغيرها او يتقربون من الرؤساء المشهورين . وغالباً مـا يقصدون من عملهم التجارة قبل ان يكونوا رجال دين في أعمالهم ولذلك نراهم يتابعون الطرق التجارية كطريق كولا *Cola* الذي يوصلهم الى الغابة في شاطىء العـاج .

ونرى شعب المورس يقوم بعلاقـات مع جنوب مراكش ، ولا يزال طريق القوافل القديم الذي يصل الى ممالح (ايدجيل *Idjil*) تسير القوافـل عليه حتى

الآن . ولكن الدين الاسلامي في الموره *Maure* قد تجمّد منذ أيام المرابطين .

أما قبائل الطواريج التي جاءت من الشمال فيبدو أنهـا لم تدخل الصحراء الا في اول العصر الميلادي . ولقد وصلوا الى النيجر حوالي القرن السابع عشر . ويبلغ عددهم اليوم في السودان والنيجر أربعمئة الف زيادة عمـا هم عليه في الصحراء .

ونرى عند التواريج في منطقة الاحجـار والآزجير ومنطقة الآيير *Aïr* وكذلك في الجنوب الغربي ، أن لكل جماعة منهم زعيماً يدعى (أمـانوكال *Amenokal*) يتم انتخابه من قبل رؤساء القبائل ، ان سلطته ليست واسعة ، كما أن كل قبيلة تملك بعض الارقاء ، الى جانب وجود طبقة النبلاء *Imachek* ايماشق ، والاتباع ايجاد *Imgad* . وفي مقابل حماية النبلاء للاتباع يقوم هؤلاء برعـاية قطعانهم من غنم وماعز وجمال . أما غذاؤهم فيتكون من التمر والحليب والسمن والجبن وخاصة من الحبوب المطبوخة كالقمح والذرة التي يشرف على زراعتهـا الارقاء السود في الواحات ؛ وكذلك اللحم فهو غذاء فاخر عندهم . وهنـاك الحدادون الذين هم من الافريقيين السود الضائعين ؛ وأما الخيام فقد كانت تصنـع قديماً من جلود الماعز والغنم وتثبت على أوتاد طويلة ، بينما نراها اليوم تصنـع من وبر الجمال أو الماعز ، وهو ما أخذه عنهم البدو الرحل فيما بعد .

أما في منطقة الآيير فنرى ظهور الاكواخ النصف دائرية المصنوعة من الحصر والمغطاة بالقش . أمـا الايجال *Imgal* التابعين للتواريج فيسكنون الوديان المزروعة ويستعملون البيوت ذات السقوف التي تشبه البيوت في مصر وافريقيـا الشمالية والسودان .

أما لبس الخمار عند الرجال فهو عادة يتمسكون بها ، فهنـاك الخمار الأبيض للأفراد العاديين والخمار الأسود للنبلاء . كما ان لبس الخمار لا يجوز قبل بلوغ سن الخامسة والعشرين . اما سلاحهم فهو السيف ذو القبضة المتصالبة والرمح والخنجر .

واله رغم وجود حكومة تعتمد على السلطة الأبوية وهو ما نراه عادة عند القبائل العربية ، فان النساء رغم ذلك يتمتعن بحرية تامة . فهن يقمن بنصيب من النشاط العام، كما ينتقين أزواجهن ، كما لا يوجد هناك تعدد في الزوجات . وهن لا يضعن الخمار على وجوههن . كما ان وضع الاولاد الاجتماعي يتحدد بواسطة الأم .

ورغم كونهم مسلمين ، فان التواريج لا يزالون يحتفظون بمعتقدات خـاصة ينكرها الاسلام. وكذلك لغتهم (التاماشيك *Tamachek*) فهي عبارة عن لهجة بربرية ؛ أمـا لهجة (التيفينار *Tifinar*) فهي الوحيدة التي كانت منتشرة بين كثير من القبائل اما اليوم فلا وجود لها الا عند النساء الطاعنات في السن .

ومن ناحيـة اخرى فان هدوء الصحراء ومنع الغزوات كانا ضربة بالنسبة للتواريج اذ منعت عليهم رزقهم . وان من لم يستطع منهم ترك حياته القديمة التي تعتمد على الغزو والحروب ، لم يتمكن من التركز والعمـل في الارض ، لأن مثل هذا يجلب العـار لاجدادهم ، ولذلك تراهم اليوم في طريقهم الى الانقراض .

وهناك ايضاً قبائل التوبو *Toubou* القليلة العدد التي تسكن في منطقة الآير *Aïr* والسهول المجـاورة التي تمتد من الفزان *Fezzan* الى بحيرة تشاد ، وتنقسم الى قسمين (التيدا) في الشمال (والدازا *Daza*) في الجنوب . وترتفع الجبـال في هذه المنطقة الى /٣٠٠٠/ م ، ومثل هذا الارتفاع الى جانب الوسط الصحراوي يسببان فروقاً كبيرة في الحرارة . فالشتاء قارس جداً ولا يسمح الا بقيـام زراعات بسيطة في الوديان الضيقة ، ولذلك تنتشر المجاعة وتهدد السكان مما يضطر كل انسان ان يملك عدة حقول زراعية في منـاطق متفرقة ليستطيع مقاومة الجوع .

كما ان قوافل التوبو تذهب من واحات ليبيا الى ضواحي بحيرة تشاد . امـا الداز في الجنوب فقد امتزجوا بالسود من سكان السودان ثم استقروا على تربية

الثيران في تلك المنطقة . وأخيراً فان التوبو هم أعداء للتواريج بصورة دائمة وقد استطاعوا ان يعطوا الى بلاد كانم *Kanem* قوتها العسكرية في القرن السادس عشر . واما دينهم الرسمي فهو الاسلام ،

وفيما يتعلق ببدو الصحراء الليبية فان كل همهم يتجه الى الاعتناء بالجمال واعداد القوافل . واذا ما كان المستوى المادي يبدو عندهم مرتفعاً بفضل الجهود التي يبذلها الرقيق لهم في الواحات ، فان نوع الحياة لا يختلف كثيراً عن سكان الصحراء الآخرين .

هذا ، وان دخول الجمل الى تلك البلاد في اول عصرنا هذا قد اعطى للبيض فرصة السيطرة المادية التي تفسر لنا تدهور وضع سكان الصحراء من السود أكانوا رقيقاً ام مُعتقين ، كما تفسر لنا ايضاً انسحاب السكان القدماء من قبائل البول والسود من تلك البلاد .

ولقد استطاع سكان الصحراء البدو ان يتمركزوا وان يمتزجوا اخيراً بعد فترة من العداء الطويلة . ومنذ ذلك الحين فقد كانوا مهددين بسبب قلة عددهم بابتلاع السود لهم الذين يحيطون بهم . وربما يكون صحيحاً ما يحدثنا به عدد من من الأساطير عن قيام ممالك سودانية أنشأها البيض ثم جاءت بعدهم الى الحكم عائلات من السود فاحتلت مكانهم .

٩ — السودان الشرقي Soudan Oriental

تقع هذه المنطقة من السودان شرقي بحيرة تشاد وهي منطقة نصف صحراوية وتسكنها قبائل من الرحل . فهناك قبائل الكبابيش *Kababish* في كوردوفان والبيدجا *Bedja* على ساحل البحر الأحمر ، الذين يعيشون حياة تذكرنا بحياة سكان الجزيرة العربية الساميين .

وان ندرة الأمطار تسمح على الاقل بتربية الجمال والثيران والغنم ، والماعز والحصان ؛ وحياتهم هذه تشبه حياة البدو في الصحراء وحياة مربي المواشي في افريقيا الشرقية . كما ان البحث عن المراعي يؤدي الى تبعثر القبائل فترة من الزمن ثم يجتمعون بعد ذلك حول موضع من المياه. اما خيامهم فهي من وبر الجمال الذي تصنعه النساء على نول لا يزال موجوداً عند القبائل البدوية العربية حتى الآن . كما يشرب الرجال حليب النوق وتشرب النساء حليب البقر ويشرب الاولاد حليب الماعز ، وكذلك فلحم الغنم هو غذاء عادي ، بيد انهم لا يذبحون الجمل الا في الاحتفالات فقط . ولقلة وجود الحبوب عندهم ، فهم يحصلون عليها من جيرانهم . ونجد عندهم العصبية التي تجمعهم بحيث تجعل كل فرد من افراد القبيلة في حالة حرب مع القبيلة الأخرى اذا ما ُقتل احد منها . كما ان السلطة الأبوية الواسعة تعطي الحق للوالد باصدار احكام حتى الموت . وأما المرأة الزانية فيقتلها أخاها وليس زوجها ، لأن اخاها هو المسئول عن أخذ الثأر في مثل هذه الحالة . والى جانب هذا فهناك آثار قديمة للسلطة الأمومية كانت موجودة عندهم . بحيث ان الصهر يسكن عند أهل زوجته في السنة الاولى من زواجه كما ان الحماة يمكنها الاعتراض على ذهاب ابنتها بعد الزواج من عندهما . أما تحديد القرابة عندهم فيسمح مثلاً بالزواج من أبناء العم الذين هم في خط واحد، ومثل هذا الزواج محرم عند السود في افريقيا . وكذلك فنساؤهم لسن محجبات الا انهن يغطين أفواههن امام الغريب . وكذلك الاطفال فهم ُيختنون بين السادسة والتاسعة من عمرهم . كما تتحمل البنات بين الثالثة والسادسة من العمر عدا بترشيءمن اعضاء جسدها عملية معاكسة قبل بلوغها سن الزواج (عملية خياطة) .

واخيراً فان قبائل الكبابيش تنتمي الى الدين الاسلامي ، ويتميزون بحمل التمائم الجلدية التي تحوي بعض آيات من القرآن او شعر أحد الأولياء الذين يستطيعون بقوتهم الخارقة ان يكشفوا عن اللصوص او ان يعثروا على احد الجمال الضائعة . كما يدفنون موتاهم باتجاه مكة . ثم يقام احتفال بعد عام من الوفاة فيذبحون في هذه المناسبة ناقتين يأكل لحمها الجميع ما عدا اقرباء المتوفى .

ونستطيع القول بأن عاداتهم تحمل الطابع الاسلامي بيد انهـــا ليست بارزة كما يجب ، الا انها تراث يضاف الى تراثهم السامي القديم .

١٠ – افريقيا الشمالية Afrique du Nord

لقد حافظت المجموعات البربرية في افريقيا الشمالية على طابع حياتهم الخاص الى جانب لغتهم التي لم تستطع اللغة العربية ان تزيلهـا ؛ كما ان الدين الاسلامي نفسه لم يرسخ كما يجب في قلوبهم .

يقول (ج . ويلريس *J. Weulresse*) : « يكوّن شمال افريقيا منطقـــة الرجل الفلاح *fellah* التي تتوافق تقريباً مـــع المنطقة التي يغلب فيها الطابع العربي الاسلامي : فالعربي الاسلامي والفلاح يبدوان غير منفصلين ، لأن الثاني هو من نتاج الاول الذي جاء من الشرق الادنى ؛ فمصر والمغرب يمثـــلان اذن انموذجاً من الانسان الريفي متشابهاً رغم الفوارق التاريخيـــة والجغرافية ، بينما يختلف هذا الانموذج عن غيره من البلاد المجاورة له . » .

ففوق سفوح الجبل الكبير حيث اقيمت المصاطب الكبيرة التي تسندهـا الحجارة ، نرى الجماعات البربريـــة في الجزائر والمغرب مع الجماعات المستعربة الاخرى يزرعون تلك المصاطب بالقمح والشعير وغيرهمـا ، ويستخدمون في زراعاتهم نفس الادوات التي تستخدم في بلاد البحر الابيض المتوسط ، وهي : المحراث والمنجل ، وفي بعض المناطق المحافظة (كالأوري *Aurès*) نرى استعمال النورج الذي هو عبارة عن خشبة عريضة يغرس فيها قطع من حجر الصوان لدراسة القمح . أما منطقة (الكابيلي *Kābylie* [1]) فهي اكثر استعداداً لزراعة الاشجار كالزيتون والتين واللوز والعنب او البلح . كما ان تربية الاغنام والماعز

---

١ – منطقة من الجزائر تقع شرق مدينة الجزائر .

تلعب دوراً كبيراً أكان ذلك عند البدو الرحل او البدو نصف – الرحل أو سكان القرى والمزارع . وهم يستخدمون الحليب وزيت الزيتون والسمن في اطعمتهم وخاصة في الحبوب المطبوخة كما يقيمون ولائم (الكوسكوس *Couscous*) او البرغل حسب لغة اهل الشام؛ وهو مستخرج من القمح اوالشعير.

أما البيوت فهي مربعة الشكل ، وتبنى جدرانها من الحجارة والطين اما السقف فيصنع من الاخشاب الطويلة ثم تغطى بالقش والطين . أما في الجنوب فيستعملون اللبن الترابي بدل الحجارة كما هي الحال في السودان . اما المآذن فهي إما مربعة الشكل او سداسية (على الطابع المراكشي) ، بحيث تتعارض مع الطابع التركي الذي يوجد في تونس ، والتي هي ذات شكل اسطواني ضيق .
وتقوم النساء البربريات بأعمال النسيج على أنوال عمودية فيصنعن السجاد والبرانس *Burnos* . أما الرجال فيستعملون النول الأفقي ويصنعون بواسطته الأقمشة العريضة الناعمة . أما صناعة الجلد القديمة التي لا تزال موجودة عند التواريج فقد طرأ عليها تغييرات من قبل العمال العرب .

وفيما يتعلق بالتنظيم السياسي فان بلاد البرابرة ترتكز على السلطة العائلية من جهة الاب ، بحيث تسكن كل عائلة في دسكرة ؛ كما يحدث ان تجتمع ثلاث او اربع دساكر لتكون قرية صغيرة ؛ كما ان اجتماع عدة قرى متجاورة يكون منطقة واحدة . وفي وسط هذه المنطقة يقوم السوق العام .

اما المجلس العام الذي يحمل السلطة السياسية في المنطقة الواحدة فيضم زعماء العائلات كلها .

لقد استولى الاسلام بالسيف على البرابرة ، بيد انه لم يستطع ان يمحو كل ذكرياتهم عن دياناتهم القديمة بحيث بقيت بعض طقوسها حتى الآن ، كالنار التي تضرم في الصيف عند بلوغ الشمس أبعد نقطة في السماء وذلك في ٢٤ حزيران ، وهذا ما يحدث في منطقة الريف الجبلية اذ يقوم الناس بالقفز فوق تلك النار .

وكذلك يوم العاشورا *Achoura* وهو اليوم العاشر من شهر محرم ويوم عيد رأس السنة وعيد الاطفال والاموات ايضاً . وكذلك علم التنجيم وشراب الحب السحري *Philtre d'amour* لا يزالان عند البرابرة . وفي كل مكان ايضاً نرى الاعتقاد (بضربة العين *Mauvais œil*) بحيث يتقون ذلك بحمل (كف فاطمة *La main de Fatma*) وهو عبارة عن شكل يد ذات خمس اصابع ممدودة . اما حضارتهم فهي مزيج ، من عناصر بربرية وسامية واسلامية ، كما تصطبغ بتأثيرات مصرية وفينيقية ويونانية ورومانية ، بحيث ان عمليات الثقب والجرح في الجمجمة عند سكان الأوري *Aurée* وجزر كناريا تذكرنا بالعمليات الجراحية المشوبة بالسحر في اوروبا الغربية في ما قبل التاريخ .

الفصل الثاني

أفريقيا في علاقاتها مع العالم الخارجي

اذا ما قُدّر لنا ان ننظر الى كتلة القارة الافريقية على خارطة للكرة الارضية ورأينا المسافات البحرية التي تفصلها عن امريكا وآسيا لرأينا كيف ان مثل هذا يفرض على افريقيا ان تكون وحدة جغرافية مستقلة . والواقع فان افريقيا كغيرها من القارات لا تشكل وحدة مفصولة تمام الانفصال عن العالم . وكذلك فالبلاد التي تحيط بالبحر الابيض المتوسط قد جذبت اليها الانظار منذ زمن طويل ، كما لا نرى فرقاً كبيراً بين اسبانيا وأفريقيا الشمالية وبين البلقان وآسيا الصغرى .

كما ان الصحراء لم تكن حتى اواخر القرون الوسطى حاجزاً بل كانت طريقاً كبيراً وممراً لنفوذ دول المتوسط التي وصلت الى افريقيا الغربية . ولقد ذكرنا سابقاً كثيراً عن تأثير مدنيات المتوسط التي لا تزال آثارها تزداد ظهوراً يوماً بعد يوم . وباستطاعتنا ان نضيف أيضاً الى تلك الآثار وجود التقارب بين لزخارف (الاتروسكيه *Etrusques*) والسردينية في العصر البرونزي وبين الادوات الحديثة في شاطىء الذهب والكامرون . كما نذكر ايضاً صور مصارعة

الثيران في كنوس Cnosse (في كريت) ، التي هي نفسها الموجودة في شمال نيجيريا . وأخيراً فان كل الاطار الصحراوي كان يسكنه جماعة الكهوف Troglodytes . كما ان ترتيب الكهوف والمخابيء الصخرية لاستخدامها كمساكن وعنابر هو نفس الترتيب الذي نراه ابتداءً من المغرب حتى مصر والاوري Aurès والسودان . وهذا ما يوحي بوجود عادات وحياة متطابقة او على الاقل بوجود وحدة حضارية واحدة في بعض المناطق خضعت لنفس التأثيرات الحضارية التي جاءتها من الخارج . وهذه التأثيرات الحضارية واضحة المعالم وقديمة ايضاً . ومما يذكر هو تلك المساحات المائية الغزيرة التي كانت تغطي المناطق الصحراوية اليوم والاراضي الليبية والنوبية . ولقد ترك انسان ما قبل التاريخ فوق الصخور في الصحراء والفزان صوراً لعدد من الحيوانات كالثور والفيل والفهد والاسد والنمر ، ونحن نعرف بأن مثل هذه الحيوانات لا يمكن تعيش الا في وجود المراعي والمياه . ولقد بقي من آثار الصحراء التي كانت غنية بالمياه بعض الينابيع والغدران . كما نجد هناك بعض الادوات الحجرية والقطع الفخارية الكثيرة التي تثبت وجود المزارعين في وادي الصحراء سابقاً والذي هو اليوم بلقع لا حياة فيه .

ولقد كان أولئك المزارعون من السود أجداد سكان افريقيا الوسطى : لأن الجمجمة التي اكتشفت في آسيلار Asselâr وفي احدى المناطق الصحراوية في جنوب شرقي تومبوكتو Tombouctou تثبت صفاتها السوداء الواضحة . ولقد وجدت هذه الجمجمة مع مجموعة من بقايا الأسماك والتماسيح وبعض الحيوانات غير الفقرية .

واذا ما أوغلنا في التاريخ بعيداً نلاحظ بأن انتشار السلالة السوداء قد طرأ عليها بعض التغيير ، كما ان الصحراء لم تعين حدود مساكن القبائل السوداء الشمالية .

وهكذا اخذت الحياة والماء معها يغوران شيئاً فشيئاً ، الا ان المعاصرين للقرطاجيين قد عرفوا الصحراء آنذاك بأنها كانت مسكونة بحيوان الفيل ،

والخيل والجواميس. اما الجمل الذي تبدو لنا صورته ملازمة للصحراء الافريقية، فانه لم يدخل اليها الا في القرون الأولى للتاريخ الميلادي. ولذلك وجب علينا ان نغير ما نحمله من افكار حول القارة الافريقية في العصر الذي نحن بصدده وأن نتصور وجود شروط معاشية تختلف كثيراً عن التي نراها اليوم والتي نعتقد بأنها أبدية لا تتغير.

ان شواطىء البحر الأحمر التي تحيط بأفريقيا الشرقية متماسكة وكذلك شبه جزيرة العرب فهي تتمم الصحراء. وفي الجنوب نرى هبوب رياح المحيط المنتظمة قد سمحت باقامة اتصالات بصورة سريعة بين افريقيا الشرقية والجزيرة العربية والهند وحتى اندونيسيا. وفي عام ٧٢٤ أرسل ملك (شي — لي — فو — شي *che - li - fo - che*) (في سفيريجايا *Svirijaya* في صومطرا) سفيراً الى امبراطور الصين ليقدم له غرامة وهي عبارة عن رجلين من الأقزام وفتـــاة من (سانكي *Sengk'i*)[1] مع فرقة من الموسيقيين والببغاوات من خمسة ألوان مختلفة.

وفي القرن الثامن بعد الميلاد وصل قسم من الرقيق الأسود الى سوماترا. كما كان الملاحون العرب يرتادون الساحل الشرقي قبل هذا التاريخ بزمن طويل.

وان حوادث من هذا النوع في ميادين متعددة تشير على الاقـــل الى وجود علاقات تاريخية بين مدنيات البحر المتوسط والآسيوية من جهـــة وبين افريقيا من جهة ثانية. اما تأثير مصر على القارة السوداء فقد بقي موضوع جدل. فالبعض يُنكر على السود الافريقيين أن يكون لديهم أية قوة ابداعية او اكتشافية، في حقول الفن والصناعات او التنظيمات الدينية والاجتماعية والتي تعود كلها الى مصدر واحد ألا وهو مصر القديمة. والبعض الآخر يشير الى مجموعـــة من الصناعات

---

(١) ان كلمة سانكي أو (سانغ — تشي ، أو جانجي *Jengi* هي كلمة فارسية أصلها زانغ *Zang* او زنجي *Zangi* ، كان يستعملها التجار والملاحون الفرس ثم العرب ليدلوا بها على السود الذين يسكنون ساحل افريقيا الشرقي. وفي العربية يقصد بها الزنج او الزنوج.

المحددة او بعض المعتقدات، ويرفض هؤلاء أية محاولة لمقارنتها مع غيرها وخاصة مع الماضي .

ومهما كان الامر فكلنا نعلم بأن الحضارة المصرية قد كان لهـــا تأثير في بلاد النوبة والسودان المصري – الانكليزي . ومن على ضفاف النيل امتدت معـــالم الحضارة الى اماكن بعيدة .

فمن المعتقد بأن استخدام النحاس قد دخل منذ زمن طويل الى افريقيـــا الوسطى عن طريق بحر العرب *Bahr el arab* الذي توجد بقربه مناجم النحاس في (أوفر *Hofra*) في منطقة (الناحاس *Nahas*) . وفي العصور التاريخية ومنذ ظهور العائلات المالكة الأولى قامت تجارة الرقيق والعاج والذهب وجـــلود الفهود والصمغ والحيوانات الغريبة ، بين مصر والسودان النيلي . كما ان ذهـاب القوافل وإيابها، التي كانت تتألف من السود النوبيين مع من ينضم اليها من المصريين المغامرين ، تقول بأن هذه القوافـل كانت تؤمن الاتصالات المستمرة المنتظمة بين كوردوفان ودارفور وبين المناطق المجاورة لبحيرة تشاد .

كما ان التقدم الحضاري في مصر في القرن الآخير من زمن ما قبل التاريخ قد امتد صعداً الى المناطق العليا البعيدة . ففي منطقة الفيوم *Fayoum* وجنوبهـا في منطقة باداري *Badari* وتازه *Tasa* من وادي النيل ، فقد كشفت الحفريات هناك عن وجود آثار تعود الى العصر الحجري الحديث ، والتي لا أثر فيهـــا لوجود المعادن، وهذا ما يدلنا على ظهور المزارعين الأول في هذه المنطقة . ولقد كان هؤلاء يصنعون الفؤوس من الحجارة المصقولة ويفلحون الأرض ويزرعونهـا بالقمح والشعير ثم يحصدون الزرع بواسطة مناجل من حجر الصوان ، كما كانوا يحفظون الحبوب في عنابر جوانبها مغطاة بالقش المجدول *Tressée* ، وهذه العنابر عبارة عن سلال كبيرة توضع داخل الارض ، ولقد وُجدت في حـــالة طبيعية كأن أحداً لم يلمسها بعد .

وكانوا يطحنون الحبوب بواسطة حجرين كبيرين وذلك قبل طبخها في أوعية فخارية . وعدا عن ذلك فقد كانوا يمتهنون صيد الحيوانات والاسماك معــاً ، كما اقتنوا الغنم والماعز وجعلوها من الحيوانات الأهلية .

واذا ما اتجهنا الى الجنوب ايضاً ، فان علماء الآثار الذين يعملون في السودان الانكليزي — المصري منذ عام ١٩٤٥ قد اكتشفوا بجوار مدينة الخرطوم آثاراً تعود لزمن ما قبل التاريخ تذكرنا بعض عناصرها بما اكتشف في العصر الحجري الحديث في مصر وهو ما تحدثنا عنه آنفاً .

ونستطيع القول بأن أقدم حضارة في الخرطوم تعود الى السود الذين كانوا يعيشون على صيد الحيونات والاسماك ، وكانت تحمل سهامهم رؤوساً من الحجارة المسنونة .

وقد كان هؤلاء السود لا يعرفون الزراعة او تربية المواشي بيد انهم كانوا يتقنون صناعة الأواني الفخارية . ثم جــاءت حضارة العصر الحجري الحديث فاستطاع هؤلاء السود أن يربوا نوعــاً من الماعز الصغيرة ، ويستعملون الدبابيس الغليظة المدوّرة والشصوص الصدفية والكلاليب العظمية . امــا الحلي التي كانوا يحملونها فهي عبارة عن لآلىء يحملونها مع أحجار أخرى وقشور بيض النعــام ، وربما تكون قد جاءتهم تلك الحلي من تيبستي *Tibesti* او من الصحراء الشرقية .

كما اكتشفت قطع فخارية في عدة مناطق بعيدة في الصحراء تذكرنا بالعصر الذي سبق حكم العائلات في مصر : ومن هذه المناطق التينيري *Ténéré* في جنوب شرقي مقاطعة الاحجار *Hoggar* ، ولقد وجد مع هــذه القطع الفخارية ليس فقط الكلاليب العظمــية والشصوص والفؤوس الحجرية كما في العصر الحجري الحديث في الخرطوم ، بل وُجد معهـــا أيضاً رؤوس حراب كثيرة . اما عمر الآثار الصحراوية فهو غير واضح تماماً . أما الاختصاصيون فيرون بأن العصر الحجري الحديث في الصحراء مشتق من العصر المصري الذي سبـــق العائلات

الحاكمة . ولكن اذا ما قبلنا وجود الحبوب والماعز فوق هضاب الصحراء الوسطى فنستطيع الاعتقاد اذن بأن احفاد اولئك المزارعين ومربي المواشي الذين تفرقوا بتأثير الجفاف واندفعوا بعيداً، كانوا قد وصلوا الى وادي النيل وتمركزوا في مناطق مختلفة تمتد من الخرطوم حتى مصر السفلى .

اما النقطة التي لا تزال موضع نقاش وجدل فهي وجود عناصر حضارية قديمة تعود الى العصر الحجري الحديث في مصر ، في البقعة التي تمتد من النيل الأبيض الى بحيرة تشاد .

وان وجود مثل هذه العناصر يفسر لنا التشابه الكبير بين بعض التنظيمات المصرية القديمة وبين ما نراه اليوم عند النيليين الحاليين .

وفي جميع الأزمنة ترى الافريقيين ، بحكم وجودهم كمزارعين ومربي مواشي ، قد اشتركوا كغيرهم باحتلال الأرض والتمركز عليها . واليهم يعود الفضل باكتشاف البلح الزيتي والبن الى جانب ترويض بعض الحيوانات وتأهيلها كالهر وخنزير (سنعار او شنعار *Sennaar*)[1]. وبعض أنواع الكلاب ؛ وربما كان السود هم ايضاً من أهلوا الماعز والحمار الذي هو بكل تأكيد من أصل افريقي ؛ وكذلك الدجاج الفرعوني او البري الذي عُرف من قبل اليونان والرومان ، ثم أهمل طيلة العصور الوسطى في الغرب حيث عاد برياً كما كان ؛ ثم ظهر من جديد كحيوان أهلي في القرن السادس عشر على يد البرتغاليين الذين عادوا من افريقيا .

ليس في هذا ما يدهش ابداً، لأن أية مدنية مهما بدت منعزلة في المظهر فانها لا يمكن ان تبقى دون احتكاك مع العالم الخارجي .

---

(١) أرض ما بين النهرين (دجلة والفرات) واسم قديم كان يطلق على مملكة السودان القديمة.

وفيما عدا الفتوحات ، فقد توطدت هناك مبادلات ثقافية وفنية وكانت دائماً هناك علاقات بين المجتمعات المتجاورة رغم اختلاف مستوى كل منها. وان الشيء البـــارز الذي يطبع السكان الافريقيين هو طريقة ذوبان التأثيرات الخارجية الكثيرة وامتزاجها في الاوساط المجتمعية القديمـــة . وغالباً ما تبقى الافكار الحضارية الأخرى كما هي في المجتمع الجديد دون تغيير ، بينما نراها تتطور او تُهمل في أمكنة أخرى .

واخيراً فان ما نراه أهم من التأثيرات التي تأتي من الخـــارج هو رفض تلك التأثيرات ومنع دخولها . واننا نجد كثيراً من المجتمعات ، في أمكنة متعـــددة وأزمنة متعددة ، ترفض ان تأخذ شيئاً من غيرها وتبقى هكذا منيعة لا يدخلها شيء غريب .

وخير مثل نضربه على هذا الرفض الذي يصدر عن بعض المجتمعات الافريقية مسألة المحراث ، الـــتي تعرفه كل بلاد البحر المتوسط والذي ظهر في شكلـــه النهائي في مصر ، والذي كانت تجره الثيران منـــذ زمن العائلة المالكة الثالثة . ورغم أننا نصادف بعض المحاريث البدائيـــة في بلاد الآبيسيني وفي منطقة نهر الزامبيز ، بحيث يحدثنا ليفنجستن *Livingstone* ، بأنه رأى تلك الآلة تستعمل في الزراعة هناك وتجرها امرأتان ؛ ولكن هذا لا يمنع ان نرى الافريقيين في كل مكان لا يستخدمون إلا المجرفة المعقوفة ، بحيث يُظهر لنا استعمالها طريقة زراعية خاصة بحيث تكون الأرض فيها غير محفورة على عمق كبير كما هي الحـــالة في المحراث . كما ان عدم وجود الآلات الزراعية الكاملة لم يمنع بعض السكان السود في السودان وغينيا ، من استخـــدام السماد في الارض وتطبيق نظام الزراعة الدوري .

وهناك مثل آخر على رفض بعض المجتمعات الســوداء لكل ما هو جديد أو خارجي : كالذهب الذي لم يُستخدم ابداً كنقد للتبادل .

وأن سكان غينيا الذين رآوا قطع الذهب بكل تأكيد بين أيـــدي البحارة الأوروبيين اثناء بحثهم عن الذهب هناك ؛ لم يخطر ببالهم أن مثل هذا المعدن يمكن استخدامه في مثل هذه الاغراض الدنيئـــة بين مجموع الافراد .

فلقد بقي الذهب في نظرهم مختصاً بالنبلاء فقط ، كما تجمّع كلـه تقريباً بين يدي الحاكم العــــام . وهكذا بقي الذهب أداة للتميز بين الطبقات في المجتمع الواحد وينظرون اليه في نفس الوقت نظرة دينية .

أما في افريقيا الغربية وفي روديسيا فقد انقلب الذهب الى نوع من الحلي الى جانب استعماله للزينة والطلاسم . إلا ان مصر هي البــلد الوحيد الذي اظهر بوضوح دور الذهب الاقتصادي . وهذا عمل بارز اذا ما فكرنا بالميل التجاري الشديد الذي يظهر عند سكان شاطىء الذهب وداهومي وهم بعد صغار في هــذه المهنة .

واذا ما فكرنا أيضاً بأن (الأصداف)[1] الصغيرة التي تستخرج من المحيط الهندي قد استعملت منذ زمن طويل كعلامة ترمز للتبادل التجاري في كل افريقيا الغربية ، وحيث نفس هذه الأصداف قد اجتازت المحيط الأطلسي مع مجموعات كبيرة من الرقيق .

ونذكر هنا أن الرفض في استعمال الذهب كنقد للتبادل كان في قسم منــه عملاً مناهضاً لارادة الاجانب : إلا ان أهل البلاد قد ادركوا بسرعة الفائدة التي يجنيها العرب وبقية البيض من مناجم الذهب ، كما أدركوا النتائج التي ستتــولد بعد ذلك اذا لم يمنعوا احتلال تلك المناجم .

واذا ما عدنا الى الماضي البعيد نرى ان الاتصالات الـــتي جرت بين افريقيا

(١) هذه الأصداف كانت تستعمل كنقد للتبادل قديماً في الهند والسنغال .

والعالم الخارجي تمثل يوماً مشؤوماً بالنسبة لسكان البلاد . وان أول قصة تاريخية هي جولة حنون البحرية التي تسجل فيما تسجل "قتسل" قردين من الغوريلا ، بقي جلداهما معلقين زمناً طويلاً في معبد (بعل *Baal*) في قرطاجة — وانها لصورة محزنة للملاقات التي قام بها العالم المتمدن مع سكان أثيوبيا .

وحتى القرن التاسع عشر فان تلك العلاقات لم تتحسن . فبعد سقوط قرطاجة وانهيار دولة مصر القديمة ، فان الحدث الهام في تاريخ افريقيا هو الغزو الاسلامي لها ، الذي أدى الى سقوط عدة عائلات حاكمة من سكانها ، وذلك بعد فترة من الفوضى والمذابح .

والحقيقة ان الاسلام ، رغم ما سبب من خراب ، فقد حمل الى افريقيا وأحيا فيها تياراً من الصناعات والفنون والعلوم ، وليس هذا التيار سوى الارث القديم لحضارة آسيا الصغرى . كما ان سير القوافل قد اكتشف منافذ كثيرة . اذ اصبحت (الجاو *Gao*) وتومبوكتو على النيجر من المراكز الثقافية والتجارية ، بفضل الاسلام . وكذلك الحج الى مكة الذي كان يقوم به النساك والاتقياء السودانيون مع ملوكهم ، قد لعب دوراً هاماً في تبادل الافكار والصناعات . كما نذكر ايضاً بأن ملك قبائل الماندينج قد أدهش سكان القاهرة في القرن السابع عشر ببطانته وحاشيته .

ولقد تغير كل شيء في القرن التاسع عشر . وكذلك فان مذبحة يهود واحة توات *Touat* والغزو المراكشي قد دمرا السودان . كما ان مملكة مونوموتابا قد انهارت امام موجات الغزو المتلاحقة ؛ واخيراً البرتغاليون الذين حاولوا الوصول الى مناجم الذهب واستغلالها ، بيد انهم لم يتمكنوا من ذلك .

وبعد الاسلام والحرب المقدسة يجيء تجار الرقيق العرب ثم من بعدهم الأوروبيون ليزيدوا في انهيار القارة السوداء .

فتجارة الرقيق كانت تضاعف الحروب وتؤدي الى ضعف المجتمعات التي كانت تنهار بالتتابع .

ولم يبق من تلك النظم السياسية التي أبيدت سوى شواهد ملكية استطاعت ان تقاوم : كمملكة قبائل الموسّي *Mossi* التي تحكمها عائلة واحدة منذ القرن الحادي عشر والتي أنجبت اربعين حاكماً . وكذلك مملكة داهومي التي تأسست ايام لويس الثالث عشر . وهنالك ايضاً مملكة الزولو وبطلها (شاكا *Chaka*) الذي يوازي اعظم الفاتحين ؛ وبعد خمسين سنة من وفاته استطاع جنوده ان يهاجموا القوات الانكليزية . واخيراً فان فقدان الأمن العام أوصل سكان القارة الى مستوى حياتي بائس ، وهذا ما رآه الاوروبيون وتأكدوا منه عندما وصلوا اليها في القرن التاسع عشر ، كما وصفوه لنـــا بعبارات قاسية جداً في بعض الأحيان .

لقد تدمرت المجتمعات الافريقية بسبب تجارة الرقيق . بيد ان هذه التجارة ادخلت الى القارة مصدرين اساسيين من ثروتها الحالية : وهمـــا زيت الأراشيد والكاكاو ، اللذان يشكلان اليوم اكثر المنتوجات التي تصدرها افريقيا الغربية ، وحيث نرى زراعة هذين الصنفين قد غيرت مظهر تلك الاراضي الواسعة ، كما جرّت الى تغيير جذري في نظام الملكية .

فلقد حمل البرتغاليون الكاكاو الى جزيرة سان تومي *San tomé* ومن ثم الى جزيرة فيرناندو بو *Fernando Po* ومنها دخل شجر الكاكاو شاطىء الذهب .
كما ان النخاسين قد حملوا معهم من امريكا شجر الاراشيد ليقدموه غـــذاء للرقيق اثناء نقلهم ، وأخيراً فقد توصل السود الى معرفـــة المانيوك *Manioc* والايغنام *igname* بواسطة البرتغاليين ايضاً .

وان مثل هذه النباتات التي تنضج متأخرة ، في فصل الجفاف ، قد انقذت

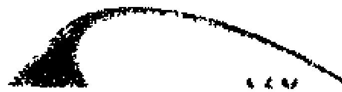
حياة الآلاف من البشر ايام سنوات المجاعة .

وليس هنا مجال للبحث في ما لأوروبا من دَين على افريقيا ، لان مساعدتها في ادخال مثل هذه الزراعات لم يكن يتجاوب مع هدف انساني صرف . وعلى كل حال فقد اظهر الافريقيون جدارتهم في وقت قصير لاستخدام تلك النباتات مستعملين الطرق الزراعية الجديدة والاعمال الحقلية الجديدة بالاضافة الى تلاؤمهم مع التغذية من هذه النباتات وطرق تحضيرها ؛ وأخيراً فقد أظهروا قبولهم للتبدلات التي غيرت كل حياتهم الاقتصادية والاجتماعية .

كما حلت تجارة البضائع محل تجارة الرقيق واستطاعت ان تتطور هذه التجارة منذ خمسين سنة تقريبا ، فغيرت بذلك نمط اقتصادهم التقليدي، حيث اصبح طلب المنتوجات الزراعية الخاضعة للتصدير يتوقف على تأرجح السوق العالمية . كما ان مشاريع الاوربيين الاستثمارية قد استهلكت كثيراً من اليد العاملة ، فكان هذا الاستهلاك سبباً في تنمية عدم توازن الاقتصاد وتجمع السكان في القارة .

واخيراً فالمراقبة السياسية والقضائية من قبل الدولة ، وكذلك المراقبة الدينية في الاماكن التي استطاعت المسيحية ان تنتشر فيها ، كل هذا كان عاملاً على هدم ما لتلك الجماعات من سلطة تقليدية فيما بينهم . وهكذا وأمام اعيننا ينمحي عالم بأسره وفي نفس الوقت تتم تغييرات اجتماعية شاملة .

واذا ما قلنا اخيراً بأن الافريقي ليس عدواً لكل جديد يطرأ عليه فلأننا نملك اليوم أعظم برهان على ذلك . فان مقدرة الافريقي على التلاؤم لهي دليل على الحيوية التي لم تستطع التجارب ان تطمسها. وستسمح له تلك الحيوية الكامنة فيه ، اذا ما بقي سيد نفسه في أرضه ، ان يحتل في العالم المكان الذي حُرِمَ منه زمناً طويلاً .



المراجع

— بومان (هـ) ويسترمان (د) : شعوب وحضارات أفريقيا . طبعة فرنسية ١٩٤٨ .

— دولافوس (م) : سود أفريقيا باريز ١٩٢٢ ، حضارات السود — الافريقيين باريز ١٩٢٥ .

— ديشامب (هـ) : يقظة أفريقيا السياسية . باريز ١٩٥٢ .

— اسكير (ج) : تاريخ الجزائر . باريز ١٩٥٠ .

— ايفان بريتشار (و . و) وفورتيس (م) : نظم افريقيا السياسية . اوكسفورد ١٩٤٠ .

— جوتيه (و . ف) : افريقيا السوداء الغربية . باريز ١٩٣٥ .

— جوليان (ش . ا) : تاريخ أفريقيا . باريز ١٩٤١ .

— كلين (ج) : تونس . باريز ١٩٤٩ .

— لابوريه (هـ) : فلاحو أفريقيا الغربية . باريز ١٩٤١ ، تاريخ سود افريقيا . باريز ١٩٤٦ .

— لوروا جوران (ا) وبواريه (ج) : سلالات الاتحاد الفرنسي . ا ، افريقيا ، باريز ١٩٥٣ .

— نيبج (ج . ل) : مراكش . باريز ١٩٥٠ .

— راد كليف — براون (ا . ر) و فورد (داريل) :

— ريشار — مولارد (ج) : أفريقيا الغربية الفرنسية . باريز ١٩٤٩ .

— سيلجمان (س . ج) : السلالات الافريقية . ترجمة فرنسية . باريز١٩٣٥ .

— فالوا (هـ . ف) : السلالات البشرية . باريز ١٩٤٩ .

— ويلرس (ج) : افريقيا السوداء . باريز ١٩٣٤ .

فهرست

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت — ص. ب ١٣٩٠

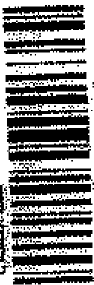
هذا الكتاب

من الاحكام القوية التي راجت ، هو أن الافريقيين لم يكن لديهم أي نصيب في التراث الحضاري بشكل عام . وهكذا تكون أفريقيا إذن دون تاريخ .

وكما أن لا احد ينكر وجود حضارات قديمة في آسيا ترجع الى آلاف السنين ، كذلك نرى أن المغامرين الأسبان بعد أن قضوا على هنود أمريكا وقفوا مذهولين أمام روعة المعابد والقصور التي خلفها اولئك المتوحشون . ولكن ما نراه هو أن ماضي القارة الأفريقية السوداء لم يلق اهتماما إلا منذ سنوات خلت ، وحتى أن دراسة الآثار الأفريقية لم يكن لها وجود .

وهذا الكتاب إنما هو مخصص للبحث في الحضارات الأفريقية الصرفة من الناحية التاريخية والسكان والأنواع وطرق الحياة .

من الكتاب



دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٤٥٠ ق ٠ ل ٠ او ما يعادلها